سراب الباطنية

قراءة نقدية في انحرافات التصوف الفلسفي

المؤلف
أدم عادل رشاد

إلى روح والدي.. طيِّب الله ثراه وجعل الفردوس الأعلى مثواه .إلى من غرس في قلبي نبتة التوحيد صافية، وعلمني أن العقيدة حصن لا يُساوم عليه، إلى ذكراك العطرة التي لا تفارق صالح دعائي ..أُهدي ثمرة هذا الجهد، راجياً من الله العلي القدير أن يتقبله بقبول حسن، وأن يجعله علماً نافعاً وصدقة جارية تثقل ميزان حسناتك، وأن يجمعنا بك في مستقر رحمته.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، وجعلنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، القائل: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" (متفق عليه).

أما بعد؛ فقد برزت في التاريخ الإسلامي حركات وتيارات بدأت كقطرات من الزهد والورع، تسعى لتهذيب النفس وتزكيتها، وهو ما عُرف في صدر الإسلام بالتصوف السني المتقدم، الذي قعد أصوله أئمة كبار أمثال الجنيد البغدادي الذي قال قولته الشهيرة "طريقنا هذا مقيد بالكتاب والسنة". في تلك الحقبة، كان التصوف مرادفاً لصدق التوجه إلى الله، والزهد في الدنيا، ومحاسبة النفس.

ولكن، مع توالي القرون وانفتاح العالم الإسلامي على ترجمات الفلسفات اليونانية، والغنوصية الفارسية، والروحانيات الهندية، تسلل إلى هذا النبع الصافي كدر عظيم. فقد تحور التصوف من ممارسة عملية للتزكية، إلى فلسفة باطنية معقدة، تُنظّر للكون والخالق بمصطلحات غريبة عن الوحيين. وبلغ هذا الانحراف ذروته مع تبني عقائد طامة كـ "وحدة الوجود" التي تمحو الفارق العقائدي البديهي بين الخالق والمخلوق، وتصادم صريح القرآن: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11].

يهدف هذا الكتاب إلى تفكيك هذه المنظومة الفلسفية الباطنية، وتسليط الضوء على الانحرافات العقدية لرموز التصوف الفلسفي أمثال: الحلاج، وأبي يزيد البسطامي، وابن عربي، والسهروردي، والجيلي. كما يغوص الكتاب في ظاهرة خطيرة تتفشى في الطرق الصوفية الحديثة، ألا وهي "الأوراد المبتدعة" والطلاسم غير المفهومة، التي انحرفت بذكر الله من صيغه الشرعية النورانية، إلى أشكال تشبه السحر والشعوذة والاستعانة بالجن، مما يفتح باباً من أبواب "الاستدراج الشيطاني" الذي يظنه الأتباع كرامات ربانية.

إننا في هذا البحث لا نُكفّر الأعيان ولا نصفي حسابات تاريخية، بل نزن الأقوال والأفعال بميزان الشرع الحنيف، حمايةً لعقيدة المسلم المعاصر من أن تبتلعها سراب الباطنية المظلم تحت ستار المحبة والروحانية المزعومة.

الفصل الأول

البون الشاسع بين التصوف السني المتقدم والتصوف الفلسفي

حقيقة التصوف الأول مقام الإحسان والتزكية

إن الدارس المنصف لتاريخ الأفكار في العالم الإسلامي لا يمكنه أن يضع مصطلح "التصوف" في سلة واحدة؛ فما كان يُعرف بالتصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، يختلف جذرياً في مبناه ومعناه ونتيجته عما آلت إليه الطرق الصوفية المتأخرة، وخاصة تلك التي تشبعت بالفلسفة والباطنية ولفهم هذا الانحراف، يجب أن نعود إلى الجذور، لنرى كيف كان النبع، وكيف تعكر.

في صدر الإسلام، لم يكن مصطلح "التصوف" أو "الصوفي" رائجاً، بل كانت المصطلحات القرآنية والنبوية هي السائدة، مثل "الزهد"، "الورع"، "الإحسان"، و"التزكية" ومع اتساع الفتوحات وانفتاح الدنيا على المسلمين، ظهرت طبقة من التابعين وتابعيهم آثرت الانقطاع للعبادة، والزهد في ملذات الدنيا، ومحاسبة النفس بصرامة كان هذا التيار السلوكي يمثل رداً عملياً على الترف المادي، وكان منضبطاً تماماً بضوابط الشرع.

لقد كانت غاية الزاهد، أو الصوفي المتقدم، هي تحقيق العبودية التامة لله، والاعتراف الدائم بالتقصير؛ فلم يدّعوا مقامات تفوق الأنبياء، ولم يطلبوا خوارق العادات وفي هذا المعنى يقول الإمام الفضيل بن عياض (ت 187هـ): "من زعم أنه يرى الله بقلبه في الدنيا فقد ابتدع، وإنما الإيمان أن تعبده كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" وقد ارتبط هذا المسلك بتقيد صارم بالكتاب والسنة، حيث كان رواد هذا المنهج يرفضون أي وارد قلبي أو فكرة لا تتوافق مع ظاهر الشرع ويُعد الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد البغدادي (ت 297هـ) - المُلقب بسيد الطائفة - الميزان الأوفى لهذه المرحلة، حيث يقول في عبارته الخالدة التي تقصم ظهر الباطنية: "طريقنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث، لا يُقتدى به في طريقتنا هذه".

وعندما بدأت تظهر بوادر الانحراف المتمثلة في التلفظ بعبارات توحي بالحلول أو الاتحاد أو تجاوز حدود الشريعة (وهو ما سُمي لاحقاً بالشطح)، لم يقف أئمة التصوف الأوائل موقف المتفرج أو المبرر، بل تصدوا لها ورفضوها وحاكموها بقوة، ليقفوا سداً منيعاً لحماية جناب التوحيد لقد أدركوا مبكراً أن التساهل في "الألفاظ" سيؤدي حتماً إلى فساد "العقائد" ومن هنا جاءت المحاكمة الصارمة للواردات القلبية؛ فكان المنهج السائد هو إخضاع أي "كشف" أو "إلهام" لمحكمة الوحي يقول الإمام أبو سليمان الداراني (ت 215 هـ) ملخصاً هذه الصرامة المنهجية "ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم (أي إلهام وخواطر الصوفية) أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة".

ولم يكتفِ الأوائل بالتنظير، بل أعلنوا البراءة من دعاة الحلول ومارسوا الإقصاء والمقاطعة لكل من شذّ فالإمام الجنيد البغدادي لم يتبرأ من الحلاج فحسب، بل طرده من مجلسه حين بدأ يهذي بكلمات تتجاوز حدود العبودية، وقال له كلمته التاريخية "لقد فتحت في الإسلام ثغرة لا يسدها إلا رأسك" وعندما سُئل الجنيد عن أقوام يدّعون أنهم يصلون إلى الله بترك الحركات (أي العبادات البدنية)، قال بحزم: "صدقوا، لقد وصلوا ولكن إلى سقر! وإن سارقاً يسرق، أو زانياً يزني، أحسن حالاً ممن يقول هذا" هذا الرفض القاطع يثبت أن الأوائل لم يقبلوا يوماً بما يُسمى "أعذار السُّكر الروحي" لتبرير الكفر، بل اعتبروا الشريعة حاكمة على المشاعر والأذواق، وليس العكس.

إذا أردنا أن نفهم حقيقة النموذج العملي "للتزكية" والزهد الفعال مقابل الدروشة في القرون الأولى، فليس علينا إلا النظر في سيرة أئمة كالإمام الحسن البصري، أو سفيان الثوري، أو عبد الله بن المبارك (ت 181 هـ) فقد قدموا نموذجاً للزهد الفعّال، وهو زهد القلوب لا زهد الجيوب؛ فلم تكن التزكية عندهم انقطاعاً في الكهوف أو انسحاباً من الحياة، بل تجسدت في مقولة: "الزهد أن تكون الدنيا في يدك، لا في قلبك" كان عبد الله بن المبارك - وهو من سادات الزهاد - يجمع بين العلم، والجهاد في الثغور، والتجارة الواسعة للإنفاق على الفقراء وطلاب العلم وكان سفيان الثوري يحمل كيس ماله ويقول: "لولا هذه الدنانير لتمندل بنا الملوك" (أي لجعلونا منديلاً يمسحون به أوساخهم) لم يكن الزاهد الأول ينتظر "فيضاً" أو مكاشفة، بل كان ينخرط في عمارة الأرض بقوة وحزم، بينما يرتجف قلبه من قوله تعالى: {وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [مريم: 71].

في المقابل، برز وباء الدروشة والتواكل في التصوف المتأخر؛ حيث استُبدل "الخوف والعمل" المأمور بهما شرعاً، بمصطلحات "العشق الغنوصي" الذي يُسقط التكليف، وتُركت ميادين الإنتاج والجهاد لصالح الزوايا والتكايا لقد تحول "الزاهد المجاهد" القوي، إلى "درويش متسول" يعيش على عطايا العوام ونذورهم، يرتدي المرقعات كشعار للتمايز، ويبرر بطالته وكسله بـ "مقام التوكل"، متجاهلاً صرخة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين ضرب المتواكلين في المسجد بدرّته وقال: "لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة" إن الدروشة، في حقيقتها، ليست إلا انتكاسة حضارية واقتصادية غُلفت بغلاف الروحانية.

وعند عرض المنهجين على ميزان العقل والمنطق المحاكمة العقلية والواقعية الأخلاقية مقابل الخيال الفلسفي، نجد أنفسنا أمام معركة بين "الواقعية" التي تحترم طبيعة الإنسان، و"الخيال" الذي يمزقها ففي إطار الواقعية الأخلاقية التي يتبناها منهج الوحي، يقرر العقل السليم أن "الكمال البشري" يكمن في تهذيب الغرائز ضمن "الحدود البشرية"؛ فالإنسان خُلق من طين ونفخة من روح، وله متطلبات وضعف ملازم له وقد كان التصوف السني المتقدم متوافقاً مع هذا المنطق العقلي؛ فهو لا يطلب من الإنسان أن يمحو غرائزه (كشهوة الطعام أو الزواج أو التملك)، بل يطلب منه إدارتها وتوجيهها بالحلال لتحقيق مقام التقوى، مركزاً على تطهير القلب من الحقد والحسد والتعلق بالدنيا (وهو ما يُعرف بالتخلية والتحلية) التزكية هنا هي مشروع أخلاقي واقعي وقابل للقياس، يتساءل: هل كذبت؟ هل سرقت؟ هل أديت الأمانة؟

أما التصوف الفلسفي، فقد غرق في الخيال والهروب من التكليف، مصطدماً بالمنطق حين اعتبر أن الكمال البشري هو الانسلاخ من البشرية وإعدام الذات (الفناء)، في محاولة لمحاكاة الصفات الإلهية المطلقة وهنا يبرز الرد العقلي حول معضلة إلغاء التكليف؛ فالمنطق يقول إنه إذا سعى الإنسان لإعدام إحساسه بذاته ونفي الأنا، فإنه بذلك يهدم مناط المسؤولية والتكليف فإذا "فنيت" أنت ولم يعد لك وجود حقيقي كما تزعم الفلسفة الباطنية، فمن الذي يُحاسب؟ ومن الذي يثاب أو يعاقب؟

يحكم العقل بأن محاولة المحدود (الإنسان) تجاوز حدوده ليصبح لا محدوداً، هو ضرب من المحال والعبث، يؤدي إلى انفصام في الشخصية وتدمير للنفس البشرية بدلاً من تزكيتها فكلما حاول المتصوف الفلسفي الهروب من بشريته وادعاء التجرد الملائكي، سقط في وحل "ادعاء الربوبية" (كقولهم: أنا الحق)، ليثبت للعقل أن محاولة القفز فوق الواقع تنتهي دائماً بالارتطام بأقبح أنواع الكبر والجنون.

جذور الانحراف تسلل الفلسفات الدخيلة

مع دخول القرن الرابع الهجري وما بعده، نشطت حركة الترجمة، واختلط المسلمون بثقافات وأديان الأمم المفتوحة في هذه المرحلة المفصلية، بدأ التصوف ينسلخ تدريجياً من كونه سلوكاً أخلاقياً إلى نظرية معرفية وعقدية وقد تضافرت عدة مصادر أجنبية لتلويث هذا النبع، تبدأ بأكذوبة "أثولوجيا أرسطو" وتسلل نظرية الفيض فمن أخطر الاختراقات الثقافية التي حدثت في العصر العباسي، ترجمة كتاب فُرض على الفكر الإسلامي باسم "أثولوجيا أرسطوطاليس" (أو الربوبية لأرسطو) وقد تبين لاحقاً للباحثين والمحققين أن هذا الكتاب لم يكن لأرسطو قط، بل كان أجزاءً من كتاب "التاسوعات" للفيلسوف الوثني "أفلوطين"، مؤسس الأفلاطونية المحدثة!

تلقف المتصوفة المتفلسفون هذا الكتاب بانبهار، وأخذوا منه "الثالوث الأفلوطيني" (الواحد، العقل الفعال، النفس الكلية)، وألبسوه عباءة إسلامية فأصبح عندهم: الذات الإلهية، الحقيقة المحمدية، وعالم الأرواح وبهذه السرقة الفكرية غير المرئية، استُبدلت عقيدة "الخلق من عدم" التي جاء بها القرآن، بعقيدة "الفيض والانبثاق" اليونانية الوثنية، وصار المتصوفة يظنون أنهم يتحدثون بأسرار الوحي، بينما هم في الحقيقة يرددون هلوسات فلاسفة اليونان قبل الميلاد بقرون.

وعند الشروع في التفكيك العقلي لهذه الفلسفات الدخيلة، تبرز أمامنا أولاً الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، والتي تعتمد على فكرة أن الكون "فاض" عن الله كما يفيض النور عن الشمس، دون إرادة أو قصد، بل بالضرورة، وأن النفس البشرية يمكنها أن تترقى حتى تتحد وتندمج في هذا "الواحد"؛ لتشكل هذه الفلسفة البذرة الأولى التي نمت منها لاحقاً شجرة "وحدة الوجود" الخبيثة وفي ميزان النقض المنطقي، نجد أن هذا التصور يهدم عقلاً صفة "الإرادة والاختيار" للخالق؛ فالشمس لا تملك خياراً في إرسال نورها، وإذا شبهنا الخالق بالشمس، فقد جردناه من المشيئة وجعلناه "عِلة ميكانيكية" تعمل بالاضطرار لا بالاختيار، بينما يوجب العقل أن يكون الإله الخالق للكون المتقن مريداً مختاراً، يفعل متى شاء وبما شاء، وليس مجرد مصدر تفيض منه الأشياء رغماً عنه.

ولا يقتصر الانحراف على الأفلاطونية، بل يمتد إلى "الغنوصية"؛ وهي كلمة مأخوذة من اليونانية وتعني "المعرفة" والغنوصية تيارات دينية وفلسفية قديمة سابقة للإسلام، تغلغلت في اليهودية والمسيحية، ثم تسللت إلى التصوف الإسلامي ولا يُقصد بالمعرفة هنا العلم الذي يُنال بالبحث أو دراسة النصوص، بل هي معرفة إشراقية باطنية وسرية، تُقذف في قلب السالك مباشرة من الغيب وتقوم الغنوصية على ركيزتين مدمرتين لأي دين مؤسسي
الأولى هي النخبوية والاحتقار، بتقسيم البشر إلى طبقة "خواص/عارفين" يمتلكون السر الإلهي، وطبقة "عوام/أهل الظاهر" تقتصر عقولهم على فهم قشور الشريعة
والثانية هي الخلاص بالمعرفة لا بالعمل، حيث تكتفي بمجرد الوصول إلى هذه المعرفة السرية (الكشف) لإسقاط التكاليف البدنية كالصلاة والصيام، معتبرة إياها مجرد أدوات لترويض العوام.

وعند إخضاع هذه الإبستمولوجيا (النظرية المعرفية) الغنوصية، وما بُني عليها من تصوف باطني، لمشارط العقل والمنطق، تنهار تماماً أمام عدة معضلات المعضلة الأولى هي الفوضى المعرفية وانعدام المعيار؛ فالعقل السليم يقرر أن أي حقيقة يجب أن تخضع لمعيار موضوعي خارجي (النص الثابت أو الدليل القطعي)، بينما تلغي الغنوصية هذا النص وتجعل المعيار هو الذوق الشخصي والإلهام الباطني ويتساءل العقل هنا إذا ادعى صوفي أن كشفه يخبره بإسقاط الصلاة، وادعى آخر كشفاً يناقضه، فإلى

أي ميزان نحتكم؟ إن جعل المشاعر الفردية والأوهام ميزاناً للحقيقة الكونية يعني إلغاء الحقيقة المطلقة وتحويل الدين إلى أهواء.

أما المعضلة الثانية فتكمن في مغالطة "اللامعقولية غير القابلة للتكذيب" ففي المنطق السليم وأصول البحث -كما يقرر فلاسفة العلم ككارل بوبر- أي ادعاء لا يمكن اختباره أو تخطئته هو ادعاء باطل معرفياً تبني الغنوصية سياجاً يمنع العقل من نقدها عبر حجة "من ذاق عرف، ومن حُرم انحرف"؛ فإذا انتقدت شطحاتهم، اتهموك بأنك محجوب لا تفهم أسرارهم يرفض العقل هذا الهروب الجبان والديكتاتورية الفكرية، ويحكم بأن الفكرة التي تختبئ خلف السرية والذوق تستر باطلاً لا يصمد في النور وتأتي المعضلة الثالثة لتكشف التناقض الصارخ بين "عدل الإله" و"احتكار المعرفة" فالإسلام دين عالمي رسالته واضحة {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ}، بينما تفترض الغنوصية أن الله أنزل قرآناً مليئاً بالألغاز لا يفكه إلا شيوخ الخلوات المظلمة! هذا التصور ينسب للإله العبث والظلم، ويجعل الدين أشبه بجمعية سرية، وهو ما ينزه العقل السوي الله عنه.

ولم يقتصر اختراق التصوف الفلسفي على فلاسفة اليونان، بل امتد ليمتص أعمق العقائد والطقوس الوثنية من حضارات الشرق القديم، وتحديداً من الهند وفارس، حيث تمت "أسلمة" هذه العقائد عبر تغيير أسمائها فقط أو ما يمكن تسميته بالاحتيال المصطلحي فمن المؤثر الهندي، انتقلت أفكار الهندوسية والبوذية كعقيدة النيرفانا واليوغا الشاقة؛ فمفهوم "الفناء" الصوفي الفلسفي (غياب الوعي وذوبان السالك في الذات الإلهية) ليس إلا ترجمة دقيقة لمفهوم "النيرفانا" البوذي، ومن فلسفة "الفيدانتا" الهندوسية العتيقة تسربت البذرة الأولى لفكرة وحدة الوجود كما استورد غلاة الصوفية ممارسات تعذيب الجسد وقتله الموجودة عند الرهبان كطول الصمت والتجويع وتجميد الحواس، وأسموها "الرياضة والمجاهدة" بزعم تحرير الروح من سجن المادة.

ومن المؤثر الفارسي، تسربت ثنائية النور والظلمة والديانات القائمة على محاربة المادة كالزرادشتية والمانوية وقد تجلى هذا الأثر بوضوح عند "السهروردي المقتول" مؤسس فلسفة الإشراق، الذي صرح بإحيائه لـ "الحكمة الخسروانية" (حكمة الفرس القدماء) أخذ السهروردي عقيدة الزرادشتيين التي تقسم الكون إلى إله النور وإله الظلمة (المادة)، واعتبر أن المعرفة تُستمد من الفيض النوراني الذي يغمر الفيلسوف المتصوف عند تجرده من جسده المظلم، وليس من الوحي.

وفي مواجهة هذا الاحتيال المصطلحي، يتجلى الرد الشرعي المعتمد على توازن الإسلام؛ حيث جاءت الشريعة بالوسطية المطلقة التي ترفض احتقار الجسد أو تعذيبه، مصداقاً لقوله تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [القصص: 77] ولما أراد بعض الصحابة الانقطاع التام للعبادة وتعذيب أجسادهم بترك النوم والصيام المتواصل، غضب النبي ﷺ وأسس القاعدة الذهبية قائلاً: "أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" (متفق عليه) فكيف، إذن، يكون تعذيب الجسد البوذي هو طريق الولاية في الإسلام؟!

يُعد الاحتجاج بـ "الكشف والرؤى" الملاذ الأخير للباطنية، ولكن عند إخضاع طقوسهم -كالخلوة المظلمة، والجوع الشديد، وترديد اللفظ المفرد بصوت وإيقاع سريع- لمجهر علم الأعصاب وعلم النفس، تتهاوى هذه الخوارق المزعومة لتنحصر في تفسيرات مادية وعلمية دقيقة.

فأولى هذه التفسيرات تتجلى في متلازمة "الحرمان الحسي" واختلاق الأوهام؛ فعندما يعزل السالك نفسه في غرفة مظلمة بلا أصوات ولا حركة لأيام طويلة داخل ما يُسمى بالخلوة، يُحرم الدماغ البشري من المدخلات الحسية الخارجية التي يعتمد عليها لضبط اتصاله بالواقع وهنا تتدخل القاعدة العصبية التي تقرر أن الدماغ البشري لا يطيق الفراغ؛ فإذا انقطعت عنه المحفزات الخارجية، يبدأ فوراً في توليد محفزاته الخاصة من الداخل، مستعيناً بالذاكرة واللاوعي ليبقى نشطاً هذه الظاهرة العلمية المعروفة تُنتج هلوسات بصرية وسمعية يراها الشخص وكأنها حقائق دامغة وما يراه الصوفي في خلوته المظلمة من أنوار وتجليات ووجوه، ليس فتحاً ربانياً كما يظن، بل هو عجز صريح من دماغه المنهك عن التمييز بين الخيال والواقع.

ويزيد من حدة هذه الأوهام كيمياء الجسد المنهك ونقص الجلوكوز والأكسجين إن إجبار الجسد على الصيام المفرط وترك اللحوم بحجة "الترويض"، مع ممارسة الذكر بالأنفاس بقوة وسرعة، يؤدي إلى نتيجة كيميائية حتمية تتمثل في انخفاض حاد في سكر الدم، وتغير في مستويات الأكسجين وثاني أكسيد الكربون الواصلة للمخ والنتيجة المنطقية لهذا التلاعب الفسيولوجي هي تخدير "الفص الجداري" في الدماغ، وهو الجزء المسؤول عن إدراك حدود الجسد والزمن وعندما يتعطل هذا الجزء، يفقد الإنسان إحساسه بحدود جسده، فيشعر أنه يذوب ويتمدد ويندمج مع الكون المحيط به! هذه الحالة الكيميائية البحتة هي بالضبط ما يسميه غلاة الصوفية بـ "مقام الفناء" أو "وحدة الوجود"؛ لقد توهموا أنهم اتحدوا بالخالق، بينما هم في الحقيقة دمروا بوصلة الإدراك المكاني في أدمغتهم.

ولا يمكن إغفال دور الإيحاء الذاتي والانحياز التأكيدي، أو ما يُعرف بالنبوءة ذاتية التحقق؛ فالمريد يدخل إلى الخلوة وهو مشحون عقائدياً بقصص مشايخه عن الأقطاب، والأنوار الخضراء، والملائكة التي ستهبط عليه ويقرر علم النفس أن الإنسان، تحت ضغط التوقع الشديد والإيحاء الذاتي، سيرى حتماً ما يتوقع رؤيته الدماغ هنا يعمل كمخرج سينمائي محترف، يعرض للمريد مسرحية تتطابق تماماً مع معتقداته المسبقة.

وتأتي الضربة القاضية لهذه الادعاءات من خلال عالمية التجربة الفسيولوجية فلو كانت هذه المكاشفات كرامات إلهية وحقائق علوية، لاختص بها أهل التوحيد والإيمان ولكن الاستقراء يُثبت أن راهب التبت البوذي، والمتصوف الهندوسي، وحتى الملحد الذي يتعاطى عقاقير مهلوسة مثل (LSD) أو(DMT) ، يصفون نفس التجربة بالضبط ذوبان الأنا، رؤية أنوار ساطعة، الشعور بالاتحاد مع الكون، وسماع أصوات غير مفهومة وهذا يقودنا إلى استنتاج عقلي حاسم إن تطابق النتائج عند اختلاف العقائد (بين مسلم، وبوذي، وملحد) يثبت بالدليل القاطع المانع أن "المصدر" واحد، وهو الجهاز العصبي البشري حين يتم وضعه تحت ضغط كيميائي ونفسي متطرف، وليس عرش الرحمن كما تدعي الباطنية إن قيامهم بإلباس هذه التفاعلات البيولوجية ثوباً إسلامياً ليس سوى أكبر عملية احتيال مصطلحي لتمرير الباطل واستعباد عقول العوام.

القطيعة المنهجية الشريعة والحقيقة

إن أخطر ما أنتجه التصوف الفلسفي هو إحداث شرخ في بنية الدين نفسه، من خلال اختراع ثنائية "الشريعة والحقيقة" فبينما يقرر منهج السلف والتصوف السني أن الشريعة هي الحقيقة عينها، وأنه لا حقيقة خارج ما جاء به محمد ﷺ باعتبار الوحي هو المصدر الوحيد للمعرفة الغيبية؛ نجد أن الباطنية والتصوف الفلسفي يؤسسون لقطيعة تامة فهم يرون أن الشريعة مجرد رسوم وقشور خُصصت للعوام والظاهريين، بينما الحقيقة جوهرٌ محجوز للخواص والأولياء الذين يزعمون تلقي علومهم مباشرة من الله بغير واسطة الوحي أو الرسل.

ولتسويغ هذه القطيعة وتبريرها، لجأت الباطنية إلى أخطر سلاح يُمكن أن يُدمر الأديان من الداخل، وهو "التفسير الباطني" والتلاعب بالنص القرآني فقد زعموا أن للقرآن ظاهراً يفهمه العوام، وباطناً لا يدركه إلا الأولياء وبناءً على هذه القاعدة المبتدعة، تلاعبوا بدلالات اللغة العربية؛ ففسروا قوله تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: 99]، بأن "اليقين" هنا ليس الموت كما أجمع الصحابة والمفسرون، بل هو "مقام المعرفة"! وعليه، فإذا وصل الصوفي إلى هذه المعرفة المزعومة، سقطت عنه الصلاة والعبادة وعلى نفس المنوال، فسروا قوله تعالى لموسى: {وَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ} بأنهما يرمزان للدنيا والآخرة، وليس النعلين الحقيقيين إن هذا العبث بالنصوص يشرع الأبواب لكل زنديق ليهدم القرآن من داخله تحت ستار المعنى الباطن.

ولم تتوقف تداعيات هذه القطيعة عند تحريف النصوص، بل أفرزت قاعدة صوفية كارثية تنص على أن "المريد بين يدي شيخه يجب أن يكون كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف يشاء" ولا ينبغي أن تُفهم هذه العبارة كمجرد مبالغة بلاغية، بل هي تقنين صريح لعملية استعباد فكري ونفسي مكتملة الأركان، تعكس سيكولوجية القطيع واختطاف الإرادة ولإحكام هذه السيطرة، ضرب غلاة المتصوفة سياجاً من الرعب النفسي حول شخصية "الشيخ"، يبدأ بمصادرة حق السؤال واغتيال العقل فقد زرعوا في عقول الأتباع قاعدة: "من قال لشيخه لِمَ؟ لم يفلح أبداً" وهذا الإلغاء التام للإرادة المستقلة يُعد شرطاً أساسياً لدخول ما يُسمى بالطريقة؛ فبمجرد أن يتنازل الإنسان عن حقه في السؤال والاعتراض، يتحول إلى وعاء فارغ جاهز لتقبل أي انحراف ولولا هذا الاستسلام الأعمى، لما تجرأ شيخ على تلقين مريده صلوات شركية، أو طلاسم سريانية مجهولة، أو أوفاقاً سحرية، دون أن يرتد المريد عن طاعته.

ولمعالجة التساؤل الفطري ماذا لو رأى المريد شيخه يرتكب الكبائر أو يخالف صريح القرآن؟ تتدخل الباطنية بحيلة ماكرة تمنح الشيخ حصانة أخلاقية مزعومة، مستغلين خديعة "قصة الخضر" فهم يقيسون أفعال شيوخهم الشاذة على أفعال الخضر مع موسى عليه السلام، ويقولون للمريد "ما تراه معصية في الظاهر وفق الشريعة، هو كمال وحكمة في الباطن وفق الحقيقة، فإياك والإنكار لئلا تُطرد من رحمة الله" هذا القياس الفاسد يخلع على الشيخ عصمة مطلقة تفوق عصمة الأنبياء، ويسمح له بتبرير أي هلوسة شيطانية أو انحراف سلوكي وإلباسه ثوب الكرامة والسر الباطني ويترافق ذلك مع احتكار مفاتيح الغيب والنجاة؛ حيث يُوهم المريد بأن طريق الله مسدود إلا من بوابة هذا الشيخ (القطب أو الغوث)، فتنقطع صلة العبد المباشرة بربه، وتتحول العبادة من "إياك نعبد" إلى التعلق المرضي بالواسطة إن هذا النموذج يتطابق في جوهره مع سيكولوجية الطوائف المنغلقة التي تعزل أتباعها عن المجتمع، وتُرهبهم بعقاب روحي صارم إن هم فكروا في الخروج عن القطيع.

وأمام هذا البنيان المتهاوي، تتجلى الردود العقلية القاصمة التي تنسف تقسيم الدين إلى "شريعة ظاهرة" و"حقيقة باطنية" فأولى هذه الردود تتمثل في معضلة "الخداع الإلهي"؛ إذ من أبده بديهيات العقل "مبدأ عدم التناقض" فلا يمكن أن يكون شرب الخمر أو ترك الصلاة حراماً في الشريعة، وكمالاً روحياً في الحقيقة! وإذا سلمنا بأن الحقيقة الباطنية تناقض الشريعة الظاهرة التي جاء بها القرآن والسنة، فهذا يُلزم منه عقلاً أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب ليموه على الناس ويخدعهم فكيف يأمر الإله الحكيم بالتوحيد والمباينة ظاهراً، ثم يكون مراده الباطن هو وحدة الوجود والحلول؟ وكيف يُحرم السحر والطلاسم في الظاهر، ويجعلها سر الولاية في الباطن؟ إن العقل السوي ينزه الإله الكامل عن هذا العبث والخداع، ويقرر أن الحق واحد لا يتجزأ، وأن كل ما خالف الشريعة فهو باطل في الحقيقة

يُضاف إلى ذلك أن ادعاء الباطنية بوجود باطن يخالف الظاهر، هو في حقيقته هدم لدلالات اللغة وعبث معرفي يُمثل جريمة اغتيال للغة نفسها فإذا كانت كلمة "صلاة" لا تعني الركوع والسجود بل تعني التأمل في قلب الشيخ، وإذا كانت كلمة "صيام" تعني كتمان الأسرار الباطنية عن العوام، فهذا يعني انهيار أداة التواصل البشري إن فصل الكلمات عن معانيها المرجعية يُحيل القرآن إلى كتاب فارغ يمكن لأي زنديق أن يملأه بما يشاء من أهواء بينما يقرر العقل أن رسالة الله نُزلت بلسان عربي مبين لتُفهم وتُعقل، لا لتكون طلاسم وأحاجي خاضعة للتأويلات اللانهائية.

وتتوج هذه الردود بكشف التناقض الغائي ومعرفة لماذا شُرع التكليف أصلاً تدعي الباطنية أن الغاية من العبادة هي الوصول إلى اليقين والمعرفة، فإذا وصل العارف سقطت عنه التكاليف وهنا يأتي النقض المنطقي القاصم إذا كان هذا الادعاء صحيحاً، فإن الأنبياء والرسل هم أعلم الخلق بالله وأكملهم وصولاً للحقيقة، فلماذا لم تسقط عنهم العبادات؟! لماذا كان النبي ﷺ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ويقول: "أفلا أكون عبداً شكوراً"؟ ولماذا جاهد، وصام، ودعا ربه حتى آخر رمق من حياته؟ إن المنطق يُحتم أنه لو كانت "الحقيقة" تُسقط "الشريعة"، لكان الأنبياء هم أولى الناس بترك العبادات إن مجرد التزام الأنبياء بالشريعة حتى الموت، هو أكبر دليل عقلي على أن ادعاءات الباطنية ليست سوى غرور شيطاني تم تسويقه للكسالى والمتهربين من مسؤولية التكليف، تحت غطاء مزيف من الكرامة والولاية.

النتيجة من إحياء القلوب إلى تخدير العقول

بينما كان زهد الأوائل يدفع المسلم ليكون كتلة من الفاعلية والإنتاج وعمارة الأرض بالعدل، أدى التصوف الفلسفي والباطني إلى انسحاب الإنسان من فاعليته الحضارية لقد استُبدل "التفكر" في آيات الله الكونية، بالدخول في خلوات مظلمة لترديد لفظ مفرد كلفظ الجلالة، أو ضمير غائب مثل "هو"، بعيداً عن المأثور النبوي، في محاولة لاستجلاب حالات من الغياب عن الوعي يُطلقون عليها زوراً "التجلي" و"المشاهدة" وما إن يتم تخدير العقل، وفصل المسلم عن نصوص الوحي الواضحة، وتهميش دور الشريعة العملية، حتى تحدث انتكاسة سيكولوجية وعقدية مرعبة للسالك؛ حيث تتغير غايته من ابتغاء مرضاة الله بالعمل الصالح، إلى اللهاث المحموم خلف النشوة الروحية والخوارق، لتتحول البوصلة من التزكية إلى السحر والوهم.

تبدأ هذه الانتكاسة بصناعة الهشاشة النفسية؛ فالمريد الذي يُحبس في خلوة، ويُمنع من النوم الكافي، ويُلقن أوراداً تفوق طاقته، يصل حتماً إلى حالة من الإنهاك العصبي والهشاشة النفسية التي تجعله مستعداً لتصديق أي وهم في هذه اللحظة، لم يعد يبحث عن الاستقامة، بل بات ينتظر ظهور الخادم الروحاني أو رؤية الأنوار الخضراء وهذا التعطش المريض للظواهر الغيبية يمثل الثغرة وبوابة السحر المقنع التي تسلل منها دجالو الباطنية لضرب عقيدة التوحيد فلم يعد المريد يكتفي بالتسبيح النبوي المفهوم، بل صار يبحث عن "السر السريع" المتمثل في طلاسم سريانية، وأسماء مجهولة، وأوفاق هندسية معقدة لقد أوهموه أن هذه التعاويذ هي مفاتيح الكون، بينما هي في ميزان الشرع والعقل بوابات صريحة لاستحضار الجن وعقد الصفقات الشيطانية والنتيجة الحتمية لذلك كله هي تحول "التصوف" من مشروع أخلاقي لتربية النفس، إلى أكاديمية لتعليم كيفية السيطرة على الغيب وتوظيف الروحانيات لقضاء الحوائج الدنيوية هكذا انتهى المطاف بالمريد الباحث عن الله، إلى السقوط في مستنقع إعادة إنتاج الوثنية، وممارسة السحر والشعوذة، تحت قبة الزاوية وباسم الدين!

ولوضع هذا الانحراف تحت المجهر الفلسفي، ننتقل إلى الرد العقلي الغائي الذي يكشف تناقض الوسيلة مع التصميم الإلهي فعلم الغائية يبحث في الهدف والمقصد من وراء تصميم الأشياء؛ وعندما نعرض منهج الباطنية في الخلوات والرياضات الشاقة على هذا الميزان العقلي، نجده يصطدم اصطداماً مدمراً بحكمة الخالق وتصميمه للإنسان وتتجلى هنا عبثية تعطيل الحواس؛ فالخالق الحكيم زوّد الإنسان بأدوات إدراكية بالغة الدقة العقل ليحلل، والعين لتبصر، والأذن لتسمع، والجسد ليتحرك ويقرر العقل السليم أن هذه "المعدات الإلهية" خُلقت لتُستعمل إلى أقصى طاقة في التدبر الكوني، ونفع البشرية، وإقامة العدل.

وفي المقابل، يأتي النقض المنطقي ليفضح المنهج الباطني الذي يفعل العكس تماماً! فهو يطلب من السالك الدخول في غرفة شديدة الظلمة لتعطيل البصر، وسد أذنيه أو الانعزال التام لتعطيل السمع، وتجويع الجسد حتى ينهار لتعطيل الحركة، فضلاً عن ترديد كلمة واحدة بلا معنى تركيبي مفيد لآلاف المرات بهدف تعطيل العقل التحليلي وتنويمه مغناطيسياً ومن هنا تنبثق المعضلة القاصمة؛ فالعقل يطرح سؤالاً لا مهرب منه لو كان الطريق الأوحد أو الأكمل للوصول إلى الله ومعرفته يتطلب إغلاق الحواس، وشل التفكير، وتدمير الجسد، فلماذا خلقها الله لنا أصلاً؟! هل زوّدنا الله بهذه المنظومة الإدراكية المعقدة لكي نعتبرها حجاباً وشراً يجب تدميره في الخلوات المظلمة؟ إن هذا التصور ينسب العبث إلى الخالق، وحاشاه سبحانه ويُحتم المنطق أن المنهج الذي يطلب منك تدمير أدوات الإدراك البشرية لكي تصل إلى الحقيقة، هو منهج يُريد أن يسلمك للجنون والهلوسة، ولا علاقة له بدين الله الذي جعل "التفكر بالوعي الكامل" أعلى مراتب العبادة.

الفصل الثاني

كارثة "وحدة الوجود" ونقضها بالأدلة الشرعية والعقلية

التأسيس الفلسفي لوحدة الوجود (قراءة نقدية في فكر ابن عربي)

لم تكن الفلسفة الباطنية مجرد خطأ فقهي أو زلة في تفسير آية، بل كانت زلزالاً معرفياً استهدف أساس البناء الديني التوحيد إن أسوأ ما يمكن أن يُبتلى به دينٌ سماوي هو محو الخط الفاصل بين الخالق والمخلوق، وهو ما عُرف لاحقاً بعقيدة "وحدة الوجود" وفي هذا الفصل، نضع هذه العقيدة ورموزها تحت مجهر الوحي وقواعد المنطق، لنثبت أنها ليست سوى إعادة تدوير للفلسفات الوثنية القديمة، غُلفت بمصطلحات إسلامية براقة.

لفهم حجم الصدع العقدي الذي أحدثه التصوف الفلسفي، يجب أن نُفكك أولاً الخلط المتعمد الذي يمارسه المدافعون عن هذا الفكر، وذلك بالتفريق الجذري بين حالة نفسية طارئة عُرفت عند الأوائل بوحدة الشهود، وبين عقيدة فلسفية راسخة عُرفت عند المتأخرين بوحدة الوجود؛ فقد استغل فلاسفة الباطنية بعض العبارات العاطفية التي صدرت عن زهاد متقدمين، ليؤسسوا عليها عقيدة كفرية.

ولضبط الميزان، نوضح أن "وحدة الشهود" هي حالة نفسية وإبستمولوجية تغلب فيها المحبة ويستولي ذكر الله على قلب السالك، حتى يغيب بتركيزه عما سوى الله، تماماً كمن ينظر إلى الشمس الساطعة في وضح النهار فلا يرى النجوم النجوم موجودة قطعاً، لكن لشدة النور، غاب "شهوده" لها الذاكر هنا يعلم يقيناً أن المخلوقات موجودة، وأن الخالق بائنٌ ومنفصل عنها، لكنه من فرط استغراقه لا يلتفت بقلبه إلا إلى الخالق هذه الحالة، وإن اعتراها بعض الشطح النفسي، لا تُعد كفراً لأنها مجرد غياب مؤقت للوعي وقصور في الإدراك البشري، وليست تقريراً لعقيدة.

أما "وحدة الوجود"، فهنا تكمن الكارثة الفلسفية فهذه العقيدة الوجودية والأنطولوجية لا تتحدث عن "شعور" الذاكر المحدود، بل تصدر حكماً على "حقيقة الكون" بأسره تُقرر هذه الفلسفة أن الوجود الحقيقي هو وجود واحد فقط (وهو الله)، وأن كل ما نراه في الكون من سماء وأرض، وبشر وحجر، وكلاب وخنازير، وملائكة وشياطين، ما هي إلا "تجليات" ومظاهر لشيء واحد بمعنى آخر: الخالق والمخلوق شيء واحد في جوهرهما، والتعدد الذي نراه هو مجرد وهم في حواسنا وهذا يمثل انتقالاً مرعباً من "العمى المؤقت عن رؤية المخلوقات" إلى "تأليه المخلوقات ذاتها".

وفي هذا السياق، يبرز محيي الدين بن عربي (ت 638 هـ) كمنظّر للهاوية؛ وهو الشخصية المحورية التي يُلقبها أتباعها بـ "الشيخ الأكبر" و"الكبريت الأحمر" لقد أخذ الشطحات المتناثرة وحولها إلى مذهب فلسفي متكامل، مستخدماً قدرة عجيبة على التلاعب بالألفاظ، حيث استعار قوالب الفلسفة الأفلاطونية المحدثة (نظرية الفيض)، وصب فيها آيات قرآنية وأحاديث بعد أن لوى أعناقها لتخدم مذهبه، تاركاً خلفه مئات المؤلفات، يقف على رأسها وأخطرها كتاب "فصوص الحِكَم".

وعند قراءة فكر ابن عربي قراءة فاحصة، نجد أنه لم يكتفِ بالتلميح، بل صرح بعقيدة وحدة الوجود وهدم جدار المباينة وانفصال الخالق عن خلقه صراحةً، مبطلاً التنزيه ودامجاً الخالق بالمخلوق يقول في "فص حكمة إدريسية" من كتابه فصوص الحكم: "فإن قلت بالتنزيه كنت مقيداً وإن قلت بالتشبيه كنت محدداً وإن قلت بالتشبيه والتنزيه كنت مسدداً فما الخَلْقُ في التمثال إلا كثلجٍ، وأنتَ (يعني الله) بها الماءُ الذي هو عينه، فما الثلج في تحقيقنا غير مائه".

وفي تحليل نقدي لهذا النص، نجد أن ابن عربي يرفض التنزيه المطلق لله، ويضرب مثالاً حسياً بالغ الخطورة بتشبيهه الكون بالثلج، والله بالماء والثلج فيزيائياً ليس إلا ماءً متجمداً، ليصبح هذا تصريحاً فجاً بأن المخلوقات ما هي إلا "تجمّد مادي" للذات الإلهية! وبناءً على هذه القاعدة (أن الله هو عين كل شيء)، وصل ابن عربي إلى نتيجة حتمية مرعبة تُسوّغ عبادة الأصنام والشرك؛ وهي أن الوثنيين لم يعبدوا إلا الله ففي "فص حكمة هارونية"، يبرر عبادة بني إسرائيل لعجل السامري قائلاً: "فكان عتب موسى لأخيه هارون لِمَا وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه، فإن العارف من يرى الحق (الله) في كل شيء، بل يراه عين كل شيء" وهذا النص ينسف القرآن من جذوره؛ فالقرآن يذم عباد العجل، بينما يزعم ابن عربي أن موسى غضب من هارون لأن صدره ضاق ولم يدرك أن العجل مجرد "تجلي" للإله! هذا التبرير للشرك يجعل إرسال الرسل بلا معنى، ويساوي بين الموحد الذي يسجد لله، والوثني الذي يسجد لصنم ولم يتوقف الأمر عند العجل، بل تمادى ابن عربي في تطبيق فلسفته في "فص حكمة موسوية"، معتبراً أن قول فرعون "أنا ربكم الأعلى" كان قولاً حقاً في ميزان وحدة الوجود، لأنه كان ينطق بلسان الحق المتجلي فيه، بل وادعى أن فرعون مات طاهراً مطهراً مؤمناً!

وأمام هذا الانحراف، يأتي النقض الشرعي ليُسقط صنم وحدة الوجود؛ فهذه العقيدة تنقض بناء الإسلام لبنة لبنة، وتصطدم بقواطع الوحي أولاً، هي تهدم أصل المباينة؛ فالإسلام مبني على أن الله تعالى بائن عن خلقه، مستوٍ على عرشه، كما قال تعالى: {الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ} [طه: 5]، أي أنه ليس حالاً في المخلوقات ولا متحداً بها

ثانياً، تتصادم مباشرة مع صريح القرآن الذي يقول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]، وهي الآية التي تنسف مثال "الثلج والماء" من جذوره وقال تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الصافات: 180]، فتسبيح الله وتنزيهه عن الاندماج في العالم المادي هو أصل الدين

ثالثاً، تؤدي هذه العقيدة إلى سقوط التكليف لغياب العابد والمعبود؛ فالتكليف يقتضي "آمراً" و"مأموراً"، وإذا اتحد الخالق والمخلوق بطلت الصلاة، وأصبح إبليس والأنبياء في مرتبة واحدة ولهذا قال الإمام ابن تيمية في الرد عليهم: "هذا القول أخبث من قول النصارى، فإن النصارى خصوا الحلول والاتحاد بالمسيح، وهؤلاء جعلوه في كل شيء، حتى في الكلاب والخنازير والقاذورات" وعن كتاب فصوص الحكم تحديداً، أطلق الإمام الحافظ الذهبي في "سير أعلام النبلاء" تحذيره المدوّي قائلاً: "فإن لم يكن في تلك الفصوص كفرٌ، فما في الدنيا إسلامٌ ولا زندقةٌ".

وهكذا يتبين أن إلباس هذه الفلسفات الوثنية ثوب التصوف والمعرفة الذوقية هو من أعظم مكايد الشيطان، حيث تم اختطاف مصطلح التزكية وتفريغه من محتواه الشرعي، ليُستبدل بوثنية مقنعة تلغي العقل وتهدم الشريعة ولا يقتصر بطلان ذلك على الأدلة الشرعية، بل تمتد إليه الردود العقلية والمنطقية القاصمة فالقول بأن الخالق والمخلوق ذات واحدة ليس فقط مصادماً للوحي، بل هو سفسطة مصادمة للبداهة العقلية، وتنهار أمام عدة معضلات رئيسية.

تتمثل المعضلة الأولى في "الشر والنقائص"؛ فالعقل السليم يقرر أن "الكامل مطلقاً" لا يمكن أن يتصف بالنقص وإذا كان الوجود واحداً وأن كل ما نراه هو الله -تعالى عن ذلك-، فهذا يُلزم منه عقلاً أن كل القاذورات والأمراض والجرائم الموجودة في العالم هي إما "الله" أو تجليات لِذاته! وهذا التناقض يهدم كمال الخالق؛ فكيف يكون المطلق في قدسيته وكماله متحداً في عين النقص والقذارة؟ العقل السوي يُحتم وجود خالق كامل مُنزه، ومخلوق منفصل يعتريه النقص.

وتأتي المعضلة الثانية في "التضاد واجتماع النقيضين"؛ فالكون مليء بالمتضادات كالنار والماء، والقاتل والمقتول، والظالم والمظلوم وإذا كان الوجود واحداً لا تعدد فيه حقيقة، فكيف يقتل الشيء نفسه؟ وكيف يظلم نفسه؟ وكيف يكون المعبود هو عين العابد؟ إن القول بوحدة الوجود يلغي بديهية عدم التناقض التي بُني عليها العقل البشري، ويُحول الكون إلى مسرحية عبثية يكون فيها الجلاد والضحية شيئاً واحداً يتوهم الانفصال.

وتُختتم هذه الردود بالمعضلة الثالثة وهي "التغير والحدوث"؛ فمن المعلوم بالضرورة العقلية والمشاهدة الحسية أن العالم المادي حادث، يتغير، ينمو، يمرض، يفنى، ويخضع للزمان والمكان بينما يجب أن يكون الخالق قديماً أزلياً، أبدياً لا يتغير ولا يحده زمان أو مكان وهنا يقطع العقل باستحالة اتحاد "القديم المطلق المتنزه عن التغير" مع "الحادث المتغير المحدود" فكيف يصير الثابت متغيراً؟ وكيف يُحصر اللامحدود في صورة إنسان أو صنم؟

بهذه المعاول العقلية، تنهار فلسفة وحدة الوجود تماماً، ليتبين للعقل الحر أنها مجرد سفسطة لغوية لا تصمد أمام أي محاكمة منطقية أو شرعية جادة.

عبد الكريم الجيلي وتأليه النبي ﷺ في كتاب "الإنسان الكامل"

بعد أن أرسى ابن عربي قواعد "وحدة الوجود"، جاء تلاميذه ومقلدوه ليطبقوا هذه الفلسفة على أدق تفاصيل العقيدة ويُعد عبد الكريم الجيلي (المتوفى سنة 828 هـ تقريباً) من أخطر من نظّروا لهذه المدرسة في كتابه الشهير "الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل" ففي هذا الكتاب، ينقل الجيلي كارثة وحدة الوجود من إطارها العام المشتت، ويركزها في شخص النبي محمد ﷺ، مختلقاً عقيدة جديدة تُعرف بـ "الحقيقة المحمدية"، والتي تتطابق بشكل مذهل مع عقيدة الحلول والاتحاد والكلمة (اللوغوس) في اللاهوت المسيحي.

ولفهم هذا الانحراف، يجب تسليط الضوء على المفهوم المشوه لـ "الإنسان الكامل"؛ فبينما يرى التصوف السني المتقدم أن النبي ﷺ هو القدوة، والأسوة الحسنة، والمصطفى الموحى إليه، نجد أن "الإنسان الكامل" عند الجيلي والفلاسفة الباطنيين ليس قدوة بل هو إله متخفٍ! إنه مصطلح كوني وفلسفي، يمثل البرزخ بين الخالق والمخلوق، بل هو المرآة التي ينظر فيها الله -تعالى الله عن ذلك- ليرى نفسه.

ويتجلى إسباغ صفات الألوهية المطلقة على النبي ﷺ بوضوح في الباب الستين من كتابه، حيث يقول الجيلي: "اعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين وأصالة ذلك هو محمد ﷺ وهو المقابل للحق (أي الله) بحقائقه، فإنه متصف بالحي العالم المريد القادر السميع البصير المتكلم" إن هذا النص يمثل هدماً صريحاً لعقيدة التوحيد؛ فالجيلي هنا يخلع صفات الله الذاتية ويجعلها صفات ذاتية للنبي ﷺ، في اصطدام مباشر مع القرآن الكريم الذي أمر النبي ﷺ أن يعلن بشريته وافتقاره الكامل لله في قوله تعالى: {قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ} [الأعراف: 188] كما يمثل هذا الغلو تشبهاً حقيقياً بالنصارى، وهو ما حذر منه النبي ﷺ بأشد العبارات حين قال: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله" (رواه البخاري)؛ وما فعله الجيلي هو عين ما فعله النصارى.

ولم يكتفِ الجيلي بتأليه النبي ﷺ في حياته، بل ادعى بناءً على فلسفة وحدة الوجود، أن الحقيقة المحمدية تتناسخ وتظهر في صور أقطاب الصوفية في كل زمان، ليؤسس لعقيدة التناسخ والحلول المستمر يقول الجيلي في نفس الباب مقرراً هذا الحلول والتجسد: "ثم إنه (يعني النبي ﷺ) له تلبس في صور العالم، فيظهر في كل زمان بما تقتضيه صورة ذلك الزمان وقد اجتمعتُ به ﷺ وهو في صورة شيخي شرف الدين إسماعيل الجبرتي وما كنت أعلم أنه النبي ﷺ، بل كنت أعلم أنه الشيخ" وعند عرض هذا النص على ميزان الشرع، نجد أنه مجرد استنساخ حرفي لعقيدة التناسخ الهندوسية فالنبي ﷺ مات وقُبر، وسيبعث يوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} وعندما يزعم الجيلي أن النبي ﷺ قد حلّ وتجسد في صورة "شيخه"، فهذا يعني أن شيخه صار إلهاً يُعبد وتُتلقى منه التشريعات؛ وهذا هو السر الباطني الكامن وراء التقديس الأعمى لشيوخ الطرق المتأخرة.

وأمام هذه الادعاءات، تبرز الردود العقلية والفلسفية القاصمة التي تنسف فكر الجيلي من قواعده فأولى هذه المعضلات المنطقية هي معضلة "تعدد القُدماء" فادعاء الجيلي بأن النبي ﷺ هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أزل الأزل، يصطدم بقرار العقل السليم بأن "الأزلية" (أي الوجود بلا بداية) هي صفة حصرية لواجب الوجود، وهو الخالق سبحانه فإذا ادعينا أن "الحقيقة المحمدية" أو الإنسان الكامل موجودٌ منذ الأزل ومصاحبٌ للذات الإلهية، فإننا نقع منطقياً في شرك "تعدد القدماء"، أي جعلنا مع الله إلهاً آخر أزلياً لم يسبقه عدم وهذا يهدم مبدأ الوحدانية المطلقة ويعيدنا إلى الفلسفات الثنوية.

وتأتي المعضلة الثانية لتكشف التناقض الصارخ بين "الكمال المُدَّعى" و"الافتقار المشاهد" فقد أسبغ الجيلي على النبي ﷺ الصفات الإلهية المطلقة كالحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة ولكن العقل يحكم باستحالة اجتماع "القدرة المطلقة" و"العجز المادي" في ذات واحدة في نفس الوقت فالسيرة النبوية المتواترة تاريخياً تخبرنا بوضوح أن النبي ﷺ جاع حتى ربط الحجر على بطنه، وشُج رأسه في غزوة أحد، وكان ينتظر الوحي أياماً ليعلم الغيب فكيف يقبل العقل أن يكون "القادر المطلق" يُجرح وينزف؟ إن إضفاء صفات الخالق المطلقة على مخلوق خاضع للسنن الفيزيائية والبيولوجية هو سفسطة منطقية تتجاهل الواقع المحسوس لصالح خيال جامح.

وتُختتم هذه السلسلة من الردود بمعضلة انشطار الهوية والعبث المعرفي ففي ادعاء الجيلي بأن النبي ﷺ يتلبس في صور العالم ويظهر في صورة "الشيخ"، نجد انهياراً كاملاً لأبسط قواعد المنطق، وهو "مبدأ الهوية" إذ يطرح المنطق هنا تساؤلات ملحة أين تذهب هوية الشيخ الأصلية؟ هل مُسخت هويته؟ وماذا لو أخطأ الشيخ أو أصابه الخرف في كبره، هل ننسب الخرف لمقام النبوة المبرأ من ذلك؟ وماذا لو ادعى شيخان في بلدين مختلفين أنهما "القطب" الذي يتجلى فيه النبي، هل تنشطر الذات المحمدية لتدير طريقتين متنافستين؟ إن هذا الادعاء لا يعدو كونه احتيالاً معرفياً يهدف إلى تأليه شيوخ الطرق لتمرير أخطائهم وكأنها وحي معصوم.

وفي النهاية، لابد من كشف "سراب المحبة" الذي تُدثّر به الباطنية هذه الأفكار الخبيثة؛ فهم لم يطرحوها ككفر بواح، بل غلفوها بغلاف المحبة العظيمة لرسول الله غير أن الميزان الشرعي والعقلي يفضح هذا التلبيس؛ فالمحبة الحقيقية تتجلى في الاتباع والتوقير كما فعل الصحابة الكرام، الذين أحبوا النبي ﷺ وفدوه بأرواحهم، ومع ذلك لم يعتقد أحد منهم أنه قطب الوجود الذي يحمل صفات الألوهية، أو أنه يتجسد في صور الناس بعد موته.

الفصل الثالث

الشطحات الباطنية ومزالق العقل الصوفي

من تخدير العقل إلى ادعاء الربوبية

قبل الولوج في محاكمة الشخصيات التي زلت أقدامها في مزالق الباطنية، يجب أولاً أن نُفكك الأدوات المعرفية والمصطلحات التي استخدموها لتبرير هذا الانحراف فالشيطان لم يأتِ لهؤلاء من باب الكفر الصريح ابتداءً، بل تدرج معهم عبر ما يمكن تسميته بـ "الاحتيال المصطلحي" لقد ابتكر فلاسفة الصوفية قاموساً يتعمد الغموض والاشتراك اللفظي، ليصبح درعاً يحتمون به من نقد علماء الشريعة ومن أهم وأخطر هذه المصطلحات التي أسست لعقيدة وحدة الوجود، وكانت البوابة الكبرى للغرور الشيطاني الذي يُلتبس على السالك فيظنه كرامة وعزة، هما مصطلحا "الفناء" و"البقاء".

نبدأ بمصطلح "الفناء"، لنتتبع كيف تحول من ترويض للنفس إلى إعدام للوعي ففي المعنى اللغوي والشرعي السليم، أو ما يُعرف بالفناء السلوكي، يُقصد به فناء إرادة العبد في إرادة الرب؛ أي أن يفنى العبد عن شهواته المحرمة وحظوظ نفسه الدنيئة، فلا يحب إلا ما يحبه الله، ولا يكره إلا ما يكرهه الله وهو إذن حالة أخلاقية يكون فيها العقل في قمة يقظته ليميز بين الطاعة والمعصية أما في المعنى الباطني الفلسفي (الفناء الوجودي أو الأنطولوجي)، فقد وقع الانحراف المرعب؛ حيث حوّل فلاسفة الصوفية الفناء من تطهير للأخلاق إلى إعدام للذات والوعي فقد عرفوه بأنه زوال شعور السالك بوجوده الخاص، بل وزوال الكون كله من شهوده حتى لا يرى موجوداً إلا الله، ثم يترقى في زعمهم ليرى أن وجوده البشري قد تلاشى تماماً وذاب في الذات الإلهية، كقطرة ماء سقطت في محيط!

وعند توجيه النقض الشرعي لهذا الفناء الفلسفي، نجده يصادم الغاية من الخلق عبر سعيه لإلغاء العبودية الواعية فقد بنى الله الدين على أساس الوعي والإدراك، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56]، والعبادة تقتضي بالضرورة وجود طرفين متمايزين: عابد يقر بضعفه وافتقاره، ومعبود يُقصد بالتعظيم أما ادعاء الصوفي أنه يفنى ويفقد الإحساس باثنينية الخالق والمخلوق، فهو هدمٌ لغاية الخلق؛ لأنه يجعل العابد والمعبود شيئاً واحداً فتسقط العبادة ويتزامن ذلك مع سعيهم لما يرفع التكليف؛ فالشريعة ترفع القلم عن فاقد الوعي، كما في الحديث: "رُفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المبتلى (المجنون) حتى يبرأ" فكيف يكون أقصى مراتب الولاية والكمال في الإسلام هو السعي المتعمد لإلغاء العقل والوعي للوصول إلى حالة تُشبه الجنون أو الغيبوبة؟ لقد كان الأنبياء والصحابة أكمل الناس عقلاً ووعياً وحضوراً، ولم يطلبوا يوماً هذا الفناء الموهوم.

ومن الناحية النفسية، يمثل هذا الفناء سقوطاً في فخ الغرور الشيطاني؛ فما يحدث للسالك في خلواته المظلمة من فقدان للإحساس بالزمان والمكان ليس فناءً في الله ولا اتحاداً مقدساً، بل يقرر العقل التحليلي وعلم النفس أنه مجرد انهيار إدراكي ناتج عن الإجهاد الحسي والعصبي وفي لحظة الانهيار هذه، يتدخل الاستدراج الشيطاني ليوهم السالك المنهك بأن فقدانه للوعي كرامة كبرى، وهذا الغرور المتوهم هو ما يجعله يخرج من خلوته محتقراً لعلماء الشريعة، ظاناً أنه تجاوز التكليف

ومن الفناء ننتقل إلى مصطلح "البقاء"، وكيف مثل رحلة خطيرة من العبودية إلى ادعاء الربوبية فإذا كان الفناء هو الموت المزعوم عن البشرية، فإن البقاء عند فلاسفة الصوفية هو القيامة المزعومة، أو الاستنساخ الإلهي يُعرّفون البقاء بأنه المرحلة التي تلي الفناء؛ فبعد أن تفنى ذات السالك المحدودة، يبقى وتُرد إليه روحه، ولكن ليس بصفته بشراً عادياً، بل بصفته متلبساً بصفات الحق عز وجل! يدّعون أن العارف في مقام البقاء يرى بسمع الله، ويبطش بيد الله (بالمعنى الحرفي والحلولي لا المجازي)، ويصبح المتصرف في الكون.

إن النقض الشرعي لهذا البقاء الفلسفي يكشف أنه إعادة إنتاج للوثنية عبر عقيدة الحلول والاتحاد الكفرية فادعاء أن المخلوق يكتسي بصفات الخالق المطلقة بعد فنائه، هو عين ما ادعاه النصارى في عيسى عليه السلام، وقد كفرهم القرآن بذلك نصاً في قوله: {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} [المائدة: 17] فإذا كان الله قد حكم بكفر من ادعى أن الإله حلّ في نبي مرسل، فكيف بمن يدعي أن الذات الإلهية وصفاتها تتلبس بشيخ صوفي أو إنسان عادي؟! كما يمثل ذلك تعدياً صارخاً على مقام الربوبية؛ فالله سبحانه متفرد بالكمال {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، ومصطلح البقاء الفلسفي يسلب الله تفرده، ويجعل في الكون آلهة صغاراً يشاركونه التصرف والقدرة تحت مسمى الأولياء والأقطاب

ولتتويج هذا التفكيك، نضع هذه المصطلحات (الفناء، البقاء، المحو) تحت مجهر النقد العقلي الصارم، لنجد أنها تصطدم ببديهيات المنطق وتتمزق أمام عدة معضلات أولها معضلة الاستحالة الأنطولوجية وانقلاب الحقائق؛ فالعقل يقرر قاعدة صارمة بأن "الماهيات لا تنقلب" فالإنسان المخلوق، المحدود، الحادث الذي له بداية ونهاية، لا يمكن عقلاً أن ينقلب ليصبح الخالق المطلق الأزلي ودعوى الصوفي الفلسفي بأنه يفنى عن بشريته ويبقى بالصفات الإلهية، تعني عقلاً أن المحدود ابتلع اللامحدود، أو أن العدم صار وجوداً مطلقاً! وهذا تناقض منطقي صارخ؛ فالكأس الصغير لا يمكن أن يستوعب ماء المحيط، فكيف لجسد بشري وعقل قاصر أن يتصف بصفات الحي القيوم؟

وتبرز كذلك معضلة الوعي المزدوج التي تطرح تساؤلاً مدوياً من الذي يخبرنا عن الفناء؟ فإذا كان غلاة الصوفية يدعون أن وعي السالك يغيب تماماً في حالة الفناء الفلسفي ولا يشهد إلا الله، بل يرى أنه هو الله؛ فإن الرد العقلي القاصم هنا هو التساؤل إذا كان وعيك قد فني تماماً، فمن الذي عاد وأخبرنا بهذه التجربة؟ إن مجرد قدرة الصوفي على تذكر الحالة، ووصفها، وتأليف الكتب عنها، يثبت عقلاً أن وعيه البشري المنفصل عن الخالق كان حاضراً ومراقباً ومسجلاً للتجربة وهذا يثبت الاثنينية (وجود راصد ومرصود، مخلوق وخالق) ويهدم خرافة الفناء والاتحاد من أساسها.

وتقودنا هذه الانحرافات إلى أخطر نتائج مقام البقاء المزعوم، ألا وهي إبطال العقل، وولادة الطلاسم، والتأله على الله فعندما يُقنع السالك نفسه أنه عاد إلى العالم بصفات إلهية، يتضخم لديه "الأنا" إلى درجة التأله، لتخرج الشطحات الكفرية كقول الحلاج: "أنا الحق" ومن هنا تحديداً، يتجرأ هؤلاء الشيوخ على اختراع الأوراد الشركية والطلاسم؛ فهم لم يعودوا ينظرون إلى أنفسهم كعبيد يتذللون بالدعاء النبوي، بل باتوا يظنون أنهم يمتلكون تفويضاً كونياً يسمح لهم بابتداع تعاويذ سريانية وأوفاق هندسية لفرض إرادتهم على الغيب واستنزال الملائكة وقهر الشياطين إنهم بذلك يبطلون العقل الذي هو مناط التكليف، ليصلوا إلى نتيجة حتمية ومأساوية إن مصطلحي الفناء والبقاء في قاموس الباطنية ليسا سوى رحلة تدميرية، تبدأ بتخدير العقل، وتمر بمخالفة صريح القرآن، وتنتهي بجنون العظمة وادعاء مشاركة الخالق في أسمائه وصفاته.

الحلاج بين هلوسة "الأنا" ومقصلة الشرع والعقل

لفهم كيف تحولت الشطحات الصوفية من مجرد أخطاء سلوكية إلى كفر بواح وعقيدة فاسدة، يجب دراسة شخصية الحسين بن منصور الحلاج دراسة تاريخية، وشرعية، وفلسفية متأنية، وتجريدها من هالة المظلومية الزائفة التي حاكها حوله المتأخرون.

يبدأ السرد التاريخي للحلاج، وهو أبو المغيث الحسين بن منصور (ولد 244 هـ - قُتل 309 هـ)، بنشأته في واسط بالعراق، حيث صحب في بداياته كبار مشايخ الصوفية المعتدلين كسهل التستري، وعمرو المكي، والجنيد البغدادي وفي هذه المرحلة، كان الحلاج يتنسك ويتعبد على طريقة الأوائل غير أن نقطة التحول الإبستمولوجي والمعرفي حدثت عندما لم يكتفِ بالزهد الإسلامي، بل ارتحل نحو الشرق، مسافراً إلى الهند، وخراسان، وتركستان وتشير المصادر التاريخية الموثقة إلى أنه احتك هناك بسحرة الهند وفلاسفتهم، واطلع على عقائد التناسخ والحلول الهندوسية والبوذية، وتعلم حيل السيمياء (ألعاب الخفة والشعوذة) .

وبعد هذه الرحلة، عاد الحلاج إلى بغداد محملاً بأفكار شرقية غريبة، لتبدأ رحلة انحداره من الزهد إلى ادعاء الربوبية فقد بدأ يُظهر للعامة خوارق وحيلاً، كإخراج فاكهة الصيف في الشتاء ومخاطبة الطير، زاعماً أنها كرامات، بينما صنفها العلماء كنوع من السحر والاستدراج وتطور به الغرور والمس الشيطاني من ادعاء الولاية، إلى ادعاء النبوة، ثم انتهى به المطاف إلى ادعاء الألوهية والحلول، زاعماً أن الذات الإلهية قد حلت في جسده المادي وهنا، أدرك أئمة التصوف السني خطره، وتبرأ منه شيخه عمرو المكي، وطرده الجنيد البغدادي قائلاً كلمته التاريخية: "أيها الحسين، لقد فتحت في الإسلام ثغرة لا يسدها إلا رأسك".

ولم تكن شطحات الحلاج مجرد زلات لسان في حالة سُكر روحي كما يبرر له أتباعه، بل كانت قصائد ورسائل مكتوبة بعناية، تقرر عقيدة باطنية واضحة المعالم ويتجلى ذلك في ادعائه الصريح للألوهية وإسقاط المباينة؛ فقد كان الحلاج يطوف في الأسواق، في كامل وعيه، ويصيح مقولته الشهيرة: "أنا الحق!"، وفي رواية أخرى أنه كان يضرب على جبته ويقول: "ما في الجبة إلا الله!" وعند التفكيك الدلالي لهذه العبارات، نجد أن "الحق" هو اسم من أسماء الله الحسنى ووصف لذاته المقدسة، وبالتالي فإن قوله "أنا الحق" ليس مجرد مجاز، بل هو إعلان صريح بانهيار الحد الفاصل بين الذات البشرية والذات الإلهية، وتأسيس لعقيدة وحدة الوجود أما قوله "ما في الجبة إلا الله"، فهو التعبير الأدق عن عقيدة الحلول، أي زعم أن الإله سكن في ثوب إنسان.

ويصل الانحراف ذروته مع استنساخ الحلاج للعقيدة المسيحية وثنائية اللاهوت والناسوت؛ فقد عُثر له على مقطوعات شعرية يهدم فيها أركان التوحيد الإسلامي ويستعير قاموس الكنيسة، كقوله: "سُبحانَ مَن أَظهَرَ ناسوتُهُ سِرَّ سَنا لاهوتِهِ الثاقِبِ / ثُمَّ بَدا في خَلقِهِ ظاهِراً في صورَةِ الآكِلِ وَالشّارِبِ" وفي تفكيك دلالي لهذا النص، نلحظ استخدامه لمصطلحات مسيحية خالصة (الناسوت: الطبيعة البشرية، واللاهوت: الطبيعة الإلهية)، ليُصرح زاعماً أن الله ظهر وتجسد في صورة إنسان يأكل ويشرب (ويقصد نفسه)، في اصطدام جذري مع عقيدة التنزيه في الإسلام.

وأمام هذا الكفر البواح، يحاول البعض تصوير إعدام الحلاج على أنه قمع سياسي من السلطة العباسية، وهو تزييف للتاريخ فقد حُوكم الحلاج في مجالس علمية علنية، وأجمع على كفره وقتله فقهاء المذاهب الأربعة وصوفية عصره في محاكمة شرعية عادلة لا سياسية ويبرز الدليل الشرعي الحاسم من القرآن الذي يُكفّر عقيدة الحلول نصاً بقوله تعالى: {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} [المائدة: 17] فإذا كان الله قد حكم بكفر من ادعى الحلول والتجسد في نبي مرسل من أولي العزم، فكيف بمن يدعي أن الله يحل في شخص كالحلاج أو في كل المخلوقات؟! وقد توافرت ردود العلماء المعتبرين على ذلك؛ فيقول الإمام ابن الجوزي: "وقد أجمع علماء العصر على كفر الحلاج وقتله وإنما أوقعه في هذا البلاء استغناؤه برأيه، ومخالطته للهند واستعماله لبعض أنواع السحر العجيبة التي ظنها جهلة العوام كرامات" ويؤكد شيخ الإسلام ابن تيمية: "مَن اعتقد ما يعتقده الحلاج من المقالات التي قُتل عليها، فهو كافر مرتد باتفاق المسلمين وما عُرف عنه من السحر والتدجيل والتمويهات معروف" ويحسم الحافظ الذهبي الأمر قائلاً: "قُتل الحلاج بسيف الشرع، وصلبوه على الزندقة والحلول ولا ريب عندنا في كفره"

وإلى جانب الردود الشرعية، فإن محاكمة شطحات الحلاج، وتحديداً مقولة "أنا الحق"، بالميزان العقلي والمنطقي تكشف مدى التهافت والعبث الفلسفي فيها فأول ما يواجهنا هو معضلة "التقييد المكاني"؛ فحين يضرب الحلاج على ثوبه ويقول "ما في الجبة إلا الله"، يقع في تناقض منطقي قاتل فالذات الإلهية مطلقة، لا يحدها مكان ولا يحيط بها زمان، بينما الجبة حيز مادي ضيق وصغير وهنا يأتي النقض العقلي إذا افترضنا أن الله حلّ في جبة الحلاج، فهل خلت منه باقي الأكوان في تلك اللحظة؟ وإذا خلت منه، فقد أصبح الإله محدوداً، ومتحيزاً، ومحتاجاً للمكان، وهذا نقص يرفضه العقل وإذا لم تخلُ منه، فلماذا خص الحلاج جبته بهذا الحلول دوناً عن باقي المخلوقات؟ يحكم العقل السليم باستحالة حلول المطلق اللامحدود في النسبي المادي المحدود، ويعد ذلك من أسوأ أنواع السفسطة.

وتبرز المعضلة الثانية في "الضعف والافتقار"، أو فكرة الإله الذي يُصلب! فالحق سبحانه هو الغني، القوي، القهار، الذي لا يعجزه شيء، ولا يمسه سوء بينما كان الحلاج إنساناً بيولوجياً يجوع ويمرض، والأدهى أنه أُلقي في السجن، وجُلد، وقُطعت أطرافه، ثم صُلب وقُتل وينقض المنطق ادعاءه متسائلاً لو كان هو الحق كما يدعي، فكيف يعجز هذا الإله المتجسد عن دفع الأذى عن نفسه؟ كيف يبكي المطلق ويتألم تحت سياط الجلاد؟ إن المشهد التاريخي لمحاكمة وصلب الحلاج هو أعظم دليل عقلي ومادي وبراغماتي على كذب مقالته؛ فالإله لا ينزف، ولا يُصلب، ولا يُقتل، والجسد المصلوب يثبت الافتقار البشري ولا يثبت الألوهية أبداً.

وأخيراً، نصل إلى مغالطة "المجاز" والانفصام اللغوي التي يحاول المدافعون المعاصرون عن الحلاج ترويجها فهم يبررون قوله "أنا الحق" بحجة بلاغية باردة زاعمين أنه لم يقصد نفسه، بل فنيت ذاته وكان الله هو الذي ينطق على لسانه، قياساً على الشجرة التي كلم الله منها موسى وهذا قياس فاسد عقلاً ولغةً ينقضه المنطق الصارم؛ فالشجرة نبات جماد، لا إرادة لها ولا وعي ولا "أنا" تمتلكها، فكانت مجرد ظرف ومكان لظهور الصوت الإلهي أما الحلاج فإنسان، ذاتٌ حية، مكلفة، تمتلك إرادة ووعياً وفي قواعد المنطق واللغة، إذا قال الإنسان المختار "أنا"، فإن الضمير يعود حتماً وضرورةً على المتكلم نفسه وهويته الشخصية ولو فتحنا باب هذا التبرير الباطني الفاسد، لساغ لكل طاغية ومجرم أن يبرر كفره! فمن حق فرعون -بناءً على هذا المنطق- أن يُعذر حين قال "أنا ربكم الأعلى"، لأننا سنقول إنه فني عن ذاته والله هو من نطق على لسانه! إن هذا التبرير هو هدم لدلالات اللغة، وإلغاء لمناط التكليف والمحاسبة، وتحويل للدين والمنطق إلى مسرح للعبث ينجو فيه فرعون والحلاج، ويُدان فيه العقل.

أبو يزيد البسطامي ومزالق "الشطح" (سبحاني ما أعظم شأني)

إذا كان الحلاج قد نظّر للحلول، فإن طيفور بن عيسى (أبو يزيد البسطامي - ت 261 هـ) يُعد الأب الروحي لظاهرة "الشطح" والشطح هو عبارة تصدر من السالك في حالة يزعمون أنها "سُكر روحي"، يكون ظاهرها الكفر الصريح.

وعند تتبع السرد التاريخي ومفارقة الزهد والشطح في حياة أبي يزيد، نجد أنه كان في أصله رجلاً صالحاً زاهداً، ولكن لشدة غلوه في ترويض النفس وممارسته للرياضات الروحية القاسية، وفي ظل غياب الضابط العلمي المتين، أصابته حالات من فقدان التوازن النفسي والغياب عن الوعي، وهو ما يُعرف بـ "الاصطلام" وفي هذه الحالات من الغياب، نطق بكلمات طامة، التقطها فلاسفة الصوفية لاحقاً وجعلوها قواعد عقدية.

لقد نُقل عن أبي يزيد عبارات تزلزل جبال التوحيد، كان أشهرها قوله: "سبحاني، سبحاني، ما أعظم شأني!"، ونُقل عنه أيضاً قوله: "إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدوني"، وقوله البالغ الخطورة: "خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله" وعند التفكيك الدلالي لهذه الشطحات، نجد أن كلمة "سبحان" تعني التنزيه المطلق، وهي حق خالص لله تعالى، فإضافتها لياء المتكلم (سبحاني) هي إعلان صريح للربوبية أما قوله إنه خاض بحراً وقف الأنبياء بساحله، فهو تفضيل صريح لمقام الولي على مقام النبي.

وأمام هذه الطامات، تعامل علماء الأمة مع أبي يزيد بميزان شرعي دقيق؛ ففرقوا بين حكم القائل وحكم المقولة وفي هذا الصدد، يُفصل شيخ الإسلام ابن تيمية الأمر موضحاً أن هذه الكلمات إن صدرت منه في حالة زوال عقل، فهو غير مكلف، والقلم مرفوع عنه كالمجنون ولكن الكارثة الحقيقية تكمن فيمن جاء بعده، فصحح هذه الأهذيّة واعتبرها "عين التوحيد"! يقول ابن تيمية بحسم: "فإن هذه الأقوال كفرٌ باتفاق المسلمين، ولا يجوز الاقتداء بمن يقولها، بل مَن اعتقد صحتها وجعلها من مقامات العارفين فهو أكفر من اليهود والنصارى".

وإلى جانب هذا الرد الشرعي، تتهاوى التبريرات الفلسفية للشطح عند عرضها على الردود العقلية والمنطقية الصارمة فأول ما ينسف هذه التبريرات هو معضلة "الأنا" الحاضرة؛ فإذا كان البسطامي قد فني عن نفسه ولم يبقَ إلا الله كما يزعمون، فكيف استخدم ياء المتكلم في قوله "سبحاني" و"شأني"؟ إن وجود الضمير العائد على المتكلم يثبت منطقياً أن وعيه الذاتي (الأنا البشرية) كان حاضراً، ويتحدث عن نفسه ويعظمها ولو كان الله هو المتكلم، لما قال "شأني" بلسان المخلوق الضعيف.

ويضاف إلى ذلك رفض العقل للقياس الفاسد على الجماد؛ فالمنطق يأبى قياس الإنسان المختار على الشجرة (الجماد) التي كلم الله منها موسى الإنسان ذات مكلفة وناطق بإرادته، فلا يُقبل عقلاً تمرير قاعدة: "أنا أتحدث بالكفر، ولكن الله هو من يقصده"

ثم تبرز معضلة انفصال الصفات عن الذات لتزيد المشهد عبثية؛ فإذا كان البسطامي في تلك اللحظة هو الله، فهل كان يعلم الغيب وقادراً على خلق ذبابة؟ الواقع يثبت أنه ظل بشراً عاجزاً يخضع للقوانين البيولوجية إن العقل السوي يحكم باستحالة أن تحل الذات الإلهية في جسد، ثم تتخلف عنها الصفات الإلهية كالقدرة؛ فدعوى الربوبية مع بقاء العجز البشري هي مجرد مسخرة منطقية.

وتُختتم هذه المحاكمة العقلية بكشف الانقلاب المنطقي لمعيار الحقيقة ففي كل القوانين والأعراف، يُعتبر كلام فاقد الوعي (سواء كان مجنوناً أو مخموراً) كلاماً ساقطاً لا يُعتد به ولكن ما فعله فلاسفة الصوفية هو انقلاب منطقي كارثي؛ حيث أخذوا أهذيات رجل يمر بحالة سُكر روحي وجعلوها أعلى مراتب الحقيقة! وهنا يتساءل العقل مندهشاً كيف يكون زوال العقل هو الأداة لاكتشاف حقائق الوجود؟ إن إقرار مثل هذا المنهج يبرر لأي مريض بالذهان يدّعي الألوهية أن يُعتبر ولياً من أولياء الله! .

السهروردي المقتول فلسفة الإشراق واستبدال الوحي بالفلسفة

ننتقل في هذا المبحث إلى شخصية بالغة الخطورة، ألا وهو شهاب الدين يحيى السهروردي (المقتول سنة 587 هـ)، والمعروف بفيلسوف النور والظلمة نشأ هذا الرجل مولعاً بالفلسفة اليونانية والزرادشتية، ليؤسس ما عُرف بمذهب "حكمة الإشراق" ولما تفشى أمره، ناظره علماء الشريعة في حلب فكشفوا زندقته، وأفتوا بردته، وهو ما دفع السلطان صلاح الدين الأيوبي للتصديق على قتله حمايةً لجناب التوحيد.

ويقوم مذهب السهروردي في أساسه على عقيدة الإشراق التي تقرر أن مصدر الحقيقة ليس الوحي، بل هو النور الإلهي المباشر ويتضح ذلك جلياً في اقتباس مباشر من كتابه "حكمة الإشراق" حيث يقول: "إن الحكمة لا تنقطع، والفيض الإلهي مستمر ومن أدرك حكمة الإشراق وتجرد عن الهياكل المظلمة (الأجساد)، صار في مرتبة يتلقى فيها عن الله مباشرة ما لم يتلقه غيره" وعند تفكيك هذا النص، نجد أنه يؤسس صراحة لاستمرار النبوة تحت مسمى "الكشف"، ويدمج الفلسفة الزرادشتية بالغنوصية في قالب واحد.

وأمام هذا الخطر، جاءت الردود الشرعية وأقوال العلماء حاسمة بإغلاق باب النبوة؛ حيث أجمع علماء حلب على أن فكر السهروردي هو انسلاخ تام من الإسلام فالإسلام مبني في جذوره على "ختم النبوة" وانقطاع الوحي السماوي بوفاة النبي ﷺ، مصداقاً لقوله تعالى: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}.

ولا يقف النقد عند حدود النقل، بل تمتد الردود العقلية والمنطقية لنسف الإبيستيمولوجيا الإشراقية من جذورها فأول ما يواجهنا هو معضلة الفوضى المعرفية؛ فإذا ألغينا النص الثابت واعتمدنا على "النور الداخلي" المزعوم، فكيف نميز عقلاً بين الإشراق الإلهي والهلوسة العقلية؟ إن العقل يوجب وجود ميزان خارجي موضوعي كالقرآن والسنة لضبط المعرفة، وإلا غرقنا في فوضى الأوهام الفردية ويضاف إلى ذلك التناقض الداخلي لفلسفة التجرد؛ فالسهروردي يدعي أن المعرفة تتطلب التجرد عن الجسد المظلم وهنا يرد العقل متسائلاً إذا كان الجسد مجرد سجن، فلماذا خلقه الله ووضع الروح فيه؟ يقرر العقل السوي أن الجسد أداة للتكامل وعمارة الأرض، وليس شراً يجب تدميره أو احتقاره.

وتزداد هذه الفلسفة تهافتاً عند الاصطدام بمعضلة التراكم المعرفي البشري ورفض الإلهام المطلق فكتابه "حكمة الإشراق" ليس سوى خليط هجين من نظرية المُثُل لأفلاطون والديانة الزرادشتية الفارسية وهنا يتساءل العقل إذا كان هذا علماً إلهياً مباشراً كما يدعي، فلماذا يحمل نفس الأخطاء العلمية للفلاسفة الوثنيين؟ إن هذا التطابق يثبت عقلاً أن علمه كان نتاج سرقة أدبية وفكر بشري بحت، وليس فيضاً إلهياً مقدساً.

وتكتمل صورة السقوط بكشف التناقض المنطقي لثنائية النور والظلمة؛ فالسهروردي يقسم الوجود إلى نور (يمثل الله) وظلمة (تمثل المادة) وهذا التقسيم يوقعنا في فخ عقدي خطير من أين جاءت الظلمة؟ إما أنها كيان موجود بذاته، وهذا شرك صريح ووثنية ثنوية؛ وإما أنها مجرد غياب للنور، أي عدم محض وإذا كانت عدماً، فكيف يكون العدم سجناً للروح؟ وفي كلتا الحالتين، تنهار الفلسفة الإشراقية وتتساقط أمام أبسط قواعد المنطق.

الفصل الرابع
الأوراد المبتدعة من ذكر الله إلى طلاسم السحر الجديد

هجر المأثور ومأسسة البدعة مغالطة تفضيل الورد على القرآن

إن المتأمل في هدي النبي ﷺ يجد أن "الذكر" هو عبادة غايتها ربط القلب بالخالق، وتعظيمه، والاعتراف بالافتقار إليه، بألفاظ واضحة المعاني نطق بها الوحي ولكن مع انحراف مسار التصوف، تم اختطاف عبادة الذكر وتحويلها أولاً إلى أداة تنظيمية، ثم تطورت لتصبح أداة سحرية يُراد بها السيطرة على الكون، أو استحضار الكائنات الغيبية، أو تخدير العقل.

لم تكن الكارثة في مجرد اختراع أدعية جديدة، بل تجلت في تحويل هذه الأدعية إلى بديل منهجي عن القرآن والسنة، وإضفاء قدسية عليها تفوق قدسية الوحي ذاته.

وبالعودة إلى السرد التاريخي لفهم مأسسة هذه البدعة وصناعة الهوية التنظيمية، نجد أنه في القرون المفضلة الأولى، لم يكن هناك ما يُسمى بورد الطريقة الفلانية أو حزب الشيخ الفلاني، بل كان المسلمون، عالمهم وعاميهم، ينهلون جميعاً من بحر الأذكار النبوية المتواترة ولكن مع دخول القرن السادس والسابع الهجري، وبدء تحول التصوف إلى مؤسسات وتنظيمات هرمية، برزت حاجة سياسية ونفسية لدى مؤسسي هذه الطرق لاختراع "شعار مميز" يربط الأتباع بهم، ويميز طريقتهم عن الطرق المنافسة في سوق كسب الأتباع.

هنا تحديداً ظهرت الأحزاب والأوراد، كحزب البحر، والحزب السيفي، والوظيفة الزروقية وما بدأ كأدعية مساعدة، تطور سريعاً ليصبح عهداً وميثاقاً؛ فأصبح الشيخ يُلقن المريد هذا الورد في طقوس خاصة، ويشترط عليه قراءته يومياً، مع زرع رعب نفسي عميق في قلبه مفاده: "إذا تركت الورد، انقطع عنك المدد، وعاقبتك الروحانيات، وتخطفك الشيطان" وهكذا، بذكاء تنظيمي خبيث، تحول الورد من دعاء يتقرب به العبد إلى الله، إلى قيد فولاذي يستعبد المريد لحساب الطريقة، ويضمن ولاءه الأعمى للشيخ.

ولكي يضمن شيوخ الطرق انصراف المريد عن القرآن الذي يفتح العقل وينير البصيرة، إلى أورادهم المبتدعة التي تبرمج العقل على التبعية، كان لابد من رفع قيمة الورد المبتدع فوق كلام الله ذاته؛ وقد بلغ الغلو في هذا الباب مبلغاً يصيب المسلم الموحد بالذهول ويتضح هذا جلياً عند الاقتباس المباشر وتفكيك ما يمكن تسميته بـ "الكارثة التيجانية" ففي أهم مراجع الطريقة التيجانية (كتاب جواهر المعاني وبلوغ الأماني)، نقرأ في فضل ورد يُسمى "صلاة الفاتح" (وهي صيغة صلاة على النبي ﷺ من تأليف البشر): "إن المرة الواحدة من صلاة الفاتح تعدل قراءة القرآن ستة آلاف مرة!"، وزعموا أن شيخهم تلقى هذا الأجر العظيم من النبي ﷺ مباشرة يقظةً لا مناماً.

وقد حاول منظرو الباطنية تبرير هذه الجريمة العقدية بحجج سفسطائية مريضة عبر تبرير باطني فاسد؛ فزعموا أن القرآن هو كلام الله المحتوي على آيات العذاب والوعيد، وقراءته قد تجلب "الجلال" (الخوف والقهر والاحتراق لقلب المريد)، بينما أورادهم وصلواتهم المبتدعة محض نور ومحبة وتجلب "الجمال" والرحمة! كما ادعوا أن القرآن كلام قديم لا يطيق العوام ثقله، بينما الورد هو كلام الولي الممزوج بالسر النبوي فهو ألطف وأسرع في الوصول وهذا التبرير ليس في حقيقته إلا احتيالاً خبيثاً لعزل المسلم عن الدستور الإلهي.

وأمام هذا الانحراف، يأتي التفكيك الشرعي لينسف أكذوبة الوحي الخاص إن ادعاء تلقي أوراد تفضل القرآن، يقظةً من النبي ﷺ بعد وفاته، هو هدم لرسالة الإسلام من أساسها، ويُنسف شرعياً من خلال عدة أوجه أولها أنه تكذيب صريح للقرآن في كمال الدين؛ فالله تعالى أعلن إتمام الرسالة وانقطاع الوحي بقوله: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3] وادعاء تشريع صلوات وأوراد جديدة ذات أجور خيالية لم تُعرف في عهد النبوة، هو إعلان ضمني بأن الدين كان ناقصاً وجاء هذا الشيخ ليكمله! وفي هذا يقول الإمام مالك بن أنس بحسم: "من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة" الوجه الثاني يتمثل في تفضيل المخلوق على الخالق؛ فالقرآن كلام الله، غير مخلوق، وهو صفة من صفاته، وأي محاولة لمساواة كلام المخلوق بكلام الخالق هي كفر بواح قال الإمام الطحاوي في عقيدته: "وإن القرآن كلام الله ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر"، فكيف بمن يفضل كلام البشر على كلام الله بستة آلاف مرة؟! ويأتي الوجه الثالث ليكشف كذبة الرؤية اليقظة؛ فالنبي ﷺ مات وقُبر، وسيبعث يوم القيامة كما قال تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ}، ومن زعم أنه يجتمع بالنبي ﷺ في اليقظة ويتلقى منه أحكاماً أو أوراداً، فقد خالف الإجماع، وفتح باباً للزنادقة ليهدموا الشريعة بدعوى أن النبي أمرهم بذلك البارحة.

ولا يقتصر تحطيم صنم الأوراد على النقل، بل تشارك فيه الردود العقلية والمنطقية بقوة؛ فعند إخضاع منظومة الأوراد والأحزاب المتأخرة لمحكمة العقل، نجد أنها تتهاوى أمام معضلات قاصمة تبرز أولاً معضلة "الخيانة أو الجهل"؛ فإذا سلمنا جدلاً بأن الورد المبتدع في القرن الثامن أو الثاني عشر الهجري له هذا الأجر العظيم الذي يفوق القرآن، فإن العقل يضعنا أمام خيارين لا ثالث لهما فإما أن النبي ﷺ كان يعلم هذا الورد العظيم ولكنه كتمه عن أبي بكر وعمر وأمته، وادخره سراً لشيخ في قرون متأخرة، وهذا اتهام صريح للنبي بالخيانة وكتمان الوحي وإما أن النبي ﷺ لم يكن يعلمه، وعلمه هذا الشيخ، وهذا اتهام للنبي بالجهل وتفضيل للشيخ عليه وكلا الخيارين يمثلان كفراً صريحاً، فالعقل السليم يوقن أن ما لم يكن يومئذٍ ديناً، يستحيل عقلاً ومنطقاً أن يكون اليوم ديناً.

وتتلوها مغالطة "الكم ضد الكيف" وتدمير الوعي؛ إذ تعتمد الأوراد الباطنية على التكرار العددي المفرط والمرهق، كقراءة ورد معين عشرة آلاف مرة في مجلس واحد وبالمحاكمة العقلية، نجد أن الغاية المنطقية من الذكر هي حضور القلب والتفكر في معاني أسماء الله (الكيف) أما إلزام المريد بآلاف الأعداد، فيحيله عقلاً إلى آلة عدّ ميكانيكية، ينصب كل تركيزه على حبات المسبحة كي لا يخطئ في العدد، فيغيب عقله تماماً عن تدبر المعنى هذا الأسلوب هو تدمير منطقي للهدف من العبادة، ويشبه تماماً التنويم المغناطيسي؛ حيث يُستلَب وعي الإنسان بالتكرار الرتيب، ليُصبح مهيأً لقبول الأوهام، وتخيل المرائي، والانقياد الأعمى للشيخ.

وتُختتم هذه المحاكمة العقلية بنسف خرافة "احتكار صكوك الغفران"؛ حيث تزعم الطرق أن أورادها هي سر الأسرار الذي ينجي من عذاب القبر ويضمن الجنة بغير حساب ويأتي الرد العقلي ليقرر أن الإله الحكيم العادل أرسل دينه رحمة للعالمين، وجعله واضحاً جلياً في كتاب يُتلى ومن الاستحالة المنطقية أن يُخفي الله أسرار رحمته وقبول دعائه في كلمات أو أوراد لم يعرفها الصحابة، ثم يُسلمها لشيخ صوفي ليحتكرها لنفسه ويوزعها على أتباعه كصكوك غفران كنسية! إن هذا التصور يجعل الدين الإسلامي العالمي أشبه بجمعية سرية مغلقة تبيع الوهم لأتباعها، وهو ما يتنزه عنه التشريع الرباني الحكيم.

الأسماء السريانية والطلاسم بوابة الاستدراج الشيطاني

إذا كان الورد المبتدع باللغة العربية هو مجرد "مخدر" للعقل لضمان التبعية، فإن مرحلة التمتمة بالأسماء الأعجمية والسريانية والطلاسم المجهولة تمثل "عقد البيع" النهائي الذي يُسلم فيه المريد روحه وعقيدته لقوى الظلام، ظاناً بجهله وغفلته أنه يرتقي في درجات الولاية.

وبالعودة إلى السرد التاريخي لفهم كيفية استيراد هذه الوثنيات كأسرار روحانية، نجد أن هذه الطلاسم لم تكن وليدة البيئة الإسلامية الصافية، بل هي نتاج اختراق ثقافي وعقدي عميق ففي عصور التراجع العلمي والركود الحضاري، تُرجمت كتب السحر الكلدانية القديمة، والتراث الهرمسي الذي يقدس النجوم والكواكب، وبقايا سحر الكابالا اليهودية وقد تلقف بعض المنتسبين للتصوف المتأخر، أمثال أحمد بن علي البوني (المتوفى 622 هـ) صاحب كتاب "شمس المعارف الكبرى"، هذه النفايات الوثنية، وقاموا بعملية "تبيئة إسلامية" لها فبدلاً من تسمية الكيانات المستحضرة بـ "الشياطين" أو "آلهة النجوم"، أطلقوا عليها أسماء رنانة مثل الروحانيات، والخدام، والملائكة الأرضية وبدل أن يصارحوا المريد بأن هذا سحر بابلي، أقنعوه أن هذه الأسماء المجهولة هي "الاسم الأعظم" المكتوب على العرش، أو دعوات كان يستخدمها نبي الله سليمان! وبهذه الخديعة التاريخية، تم تمرير أقذر أنواع السحر الوثني إلى داخل الحواضر الإسلامية، وصار يُطبع في كتب وتُعقد له حلقات الذكر.

ويتضح حجم هذا الانحراف عند الاقتباس المباشر وتفكيك دعاء الأسماء المجهولة؛ إذ تزخر كتب الأوراد الباطنية الحديثة، التي لا تزال تُقرأ في بعض الزوايا حتى اليوم، بأسماء لا أصل لها في لغة العرب ولا في الوحيين، وتُفرض على المريدين كأوراد يومية فنقرأ في بعض الأحزاب والقصائد التي تُعتبر مقدسة عند بعض الطرق، كالدعوة البرهتية أو الجلجلوتية، نصوصاً يقولون فيها: "أقسمت عليكم يا خدام هذه الأسماء بـ (بَرْهَتِيهٍ بَرْهَتِيهٍ، كَرِيرٍ كَرِيرٍ، تَتْلِيهٍ تَتْلِيهٍ، طُورَانٍ طُورَانٍ)"، ويزعمون للمريدين أن "برهتيه" تعني القدوس، وأن "كرير" تعني إله كل شيء باللغة السريانية إن التفكيك المنهجي لهذا النص يكشف عن خديعة مزدوجة؛ فهو أولاً يحتوي على "أقسام" (أقسمت عليكم)، بينما الدعاء في الإسلام هو طلب وتضرع للخالق وليس إقساماً على المخلوقات الغيبية وثانياً، هو نداء صريح لكيانات مجهولة؛ وعند فحص هذه الكلمات لغوياً وتاريخياً، يتبين للباحثين أنها إما أسماء لعفاريت ومردة من الجن، أو مجرد تلاعب لفظي بأحرف عبرية وسريانية قديمة كانت تُستخدم في سحر الكابالا.

وأمام هذا السحر المقنع، يأتي التفكيك الشرعي ليفضح هذا الاستدراج الموهوم بالكرامة، والذي تصدى له أئمة الإسلام بكل حزم وسدوا بابه فقد أجمع علماء الشريعة على تحريم الرقية والدعاء بالمجهول، ونهوا عن النطق بأي تعويذة أو ورد لا يُفهم معناه وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بقوة وحسم: "العزائم التي تُعمل باللغات العجمية وما لا يُعرف معناه يُنهى عنها، لأنها مظنة الشرك وكثير منها يكون أقساماً بأسماء الشياطين واستغاثة بهم" وهذا يتوافق مع قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} وتتجلى هنا قاعدة "التخادم" والشرك مقابل الخدمة الدنيوية؛ فالشياطين لا تخدم الإنسي مجاناً كرامةً لعينيه، بل هناك عقد منفعة متبادلة نص عليه القرآن صراحة: {وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ} [الأنعام: 128]

وهذا الاستمتاع هو التخادم؛ فالمريد يُشرك بالله ويُهين التوحيد بترديد هذه الأسماء الشيطانية المجهولة ليحقق متعة الشيطان، وفي المقابل، يمنحه الشيطان وهماً بالكرامة، كأن يخبره بمكان شيء

ضائع، أو يجعله يمشي على النار دون أن يحترق، أو يطير في الهواء ليحقق متعة الإنسي وهنا تقع الكارثة العقدية؛ إذ يظن المسكين المخدوع أن هذه الظواهر هي كرامات ربانية لصدق ورده، بينما هي في ميزان الشرع استدراج شيطاني وعقوبة لقد استُدرج المريد ليبيع آخرته بلعبة بهلوانية دنيوية رخيصة، وانزلق من مقام الولي العابد إلى درك الكاهن الساحر.

ولإتمام هدم هذا البنيان، ننتقل إلى الردود العقلية التي تفضح منطق الاستغفال اللغوي وعبثية التشفير فعند محاكمة استخدام الطلاسم المجهولة في العبادة أمام ميزان العقل والمنطق، نجد أننا أمام حالة من الاستغفال الجمعي الذي يهين كرامة العقل البشري، وتبرز أمامنا معضلتان رئيسيتان الأولى هي معضلة "الوسيط الأعمى"؛ ففي العُرف البشري البديهي، اللغة هي وسيلة لنقل القصد والمعنى، ولا يمكن لعاقل أن يوقع على عقد تجاري بلغة يجهلها تماماً لأنه يدرك أنه قد يبيع نفسه كعبد دون أن يدري! فكيف يقبل إنسان يدّعي العقل أن يقف بين يدي الله، أو في خلوته، ليعقد صلة روحية متمتماً بكلمات مجهولة (مثل: طهوج، مهوج، برهتيه) لا يعرف دلالتها؟! إن العقل يدرك أن تغييب الفهم هو الخطوة الأولى في عقود السحر الأسود وعندما لا تعرف معنى ما تقول، فأنت لم تعد تناجي رباً، بل أنت تُلقي تعويذة سحرية كالببغاء الذي لا يفقه ما يخرج من منقاره، في احتقار صارخ لجوهر العبادة المتمثل في الوعي المتبوع بالخشوع.

وتأتي المعضلة الثانية لتنسف خرافة "التشفير الإلهي"؛ حيث يزعم شيوخ الباطنية أن هذه الكلمات السريانية هي سر الأسرار والاسم الأعظم الذي أخفاه الله عن العوام وهنا يبرز الرد العقلي القاصم إن الإله الخالق الرحيم أرسل دينه هداية ونوراً مصداقاً لقوله: {قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ}، وكلمة "مبين" تعني الواضح الكاشف فمن الاستحالة المنطقية أن ينزل الله قرآناً بلسان عربي مبين، ثم يُخفي أعظم أسرار الإجابة والوصول إليه في شفرات لغوية ميتة أو كلمات أعجمية غير مفهومة! هل يعجز الله عن التعبير عن ذاته باللغة العربية التي شرفها بالقرآن؟ إن هذا الادعاء يحول الله - حاشاه- إلى ما يشبه مبرمج حاسوب يضع "أكواد غش" في الكون لا يعرفها إلا قلة من القراصنة أو الشيوخ إن العقل السوي ينزه الإله الحكيم عن هذا العبث، ويقرر أن ادعاء التشفير ما هو إلا حيلة من الدجالين لاحتكار السلطة الروحية، وبيع الوهم المعرفي للرعاع الذين ينبهرون بكل ما هو غامض وغير مفهوم.

علم الحرف والأوفاق علمنة السحر والشعوذة

لم تكتفِ الباطنية الصوفية باختراع الأوراد ونداء الكيانات المجهولة، بل أرادت أن تمنح انحرافها شرعية معرفية وعلمية مزيفة؛ فابتكروا ما يُسمى بعلم الحرف وجداول الأوفاق، زاعمين أن لحروف الأبجدية وأرقامها أرواحاً وطاقات خفية تؤثر في فيزياء الكون وأقدار البشر!

وعند تتبع الجذور التاريخية لأسطرة الأبجدية، يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن علم الحرف ليس علماً إسلامياً البتة، بل هو استنساخ مشوه لوثنيات الأرقام القديمة فقد بدأ هذا الانحراف مع الفلسفة الفيثاغورية اليونانية التي اعتقدت أن الأشياء في جوهرها أرقام، ثم انتقل إلى اليهودية عبر سحر الكابالا وكتابهم السري "سفر يتزيراه" الذي يزعم أن الله خلق الكون باستخدام الحروف العبرية المكونة من اثنين وعشرين حرفاً وقد تسللت هذه الخرافة إلى العالم الإسلامي عبر الحركات الباطنية المتطرفة كإخوان الصفا والقرامطة والفرقة الحروفية، ثم بلغت ذروتها التنظيرية على يد غلاة التصوف أمثال محيي الدين بن عربي، وأحمد بن علي البوني صاحب كتاب "شمس المعارف" قام هؤلاء بأسطرة الأبجدية العربية؛ فجردوا الحروف من وظيفتها كأداة للتواصل اللغوي والفهم، وحولوها إلى لبنات طاقية وسحرية، جاعلين لكل حرف طبعاً (ناري، ترابي، هوائي، مائي)، ولكل حرف كوكباً يحكمه، وخادماً من الجن يتوكل به!

وبذلك، تجاوز غلاة المتصوفة مرحلة الدعاء الشركي المنطوق، إلى تأسيس فيزياء روحانية مزيفة مكتوبة تتجلى في جداول الأوفاق وهندسة الوهم وتعتمد آلية العمل في هندسة الأوفاق على مربع هندسي (أشبه بلعبة السودوكو) مقسم إلى خانات يقوم الشيخ أو "الروحاني" بحساب القيمة العددية لاسم المريض أو حاجته، واسم الله، واسم الكوكب، بناءً على نظام حساب الجُمّل (أبجد هوز)، ثم يوزع هذه الأرقام داخل المربع بطريقة رياضية تجعل المجموع من كل الاتجاهات متطابقاً ولا يكتمل الوفق رياضياً فقط، بل يتم استدعاء الخدام باستخراج اسم شيطاني من مجموع الأرقام بإضافة مقطع "ائيل" للإيهام بأنه مَلَك علوي، أو مقطع "طوش" للجن السفلي، ويُكتب حول المربع ثم يُعطى للمريد كحجاب أو تميمة يحمله في جيبه، أو يُذيبه في الماء ويشربه، زاعمين أن هذا الجدول الرياضي كفيل بتدمير الأعداء، أو جلب الحبيب، أو الشفاء من الأمراض العضال!

وأمام هذا العبث، يأتي التفكيك الشرعي ليؤكد أن صناعة الأوفاق ليست مجرد لعب بالأرقام، بل هي مجمع للكبائر العقدية الموبقة التي تتضمن التنجيم والتمائم الشركية والامتهان فهي أولاً سحر مكتمل الأركان؛ إذ إن ربط تأثير الأرقام والحروف بجلب نفع أو دفع ضر من خلال استرضاء الجن الموكلين بالجدول، هو عين السحر المحرم بالنص والإجماع وهي ثانياً تنجيم وشرك سببي؛ حيث يشترط البوني وغيره لنجاح الوفق أن يُكتب في ساعة فلكية محددة، لاعتقادهم بتأثير النجوم على أقدار الأرض، وهو الشرك الذي هدمه النبي ﷺ صراحةً بقوله: "من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد" (رواه أبو داود) وهي ثالثاً امتهان للقرآن الكريم عبر التمائم الباطنية؛ فأفظع ما في الأوفاق هو إحضار آيات القرآن وتقطيع حروفها، وتحويلها إلى أرقام صماء تُرسم في المربعات مع أسماء الشياطين لتُعلق في الأعناق أو تُدفن في المقابر! وهذا امتهان صريح لكلام الله الذي نزل للتدبر لا للتعليق، وقد قال ﷺ: "من علق تميمة فقد أشرك" (رواه أحمد) .

وإلى جانب البطلان الشرعي، تبرز الردود العقلية والمنطقية لنسف خرافة طاقة الحروف؛ فعندما نضع فيزياء الأوفاق السحرية تحت مجهر العقل الصارم، نجد أنها مسخرة منطقية تتهاوى أمام أبسط قواعد التفكير السليم تبرز أولاً عبثية المرجعية الحسابية؛ فالأوفاق تعتمد كلياً على حساب الجُمل وإعطاء قيمة عددية لكل حرف وهنا يوجه العقل نقضه الحاسم إن ترتيب (أبجد هوز حطي كلمن) وتقييماتها العددية هي اختراع بشري اصطلاحي بحت يعود للأبجدية الفينيقية والآرامية، وليس تنزيلاً إلهياً ولا قانوناً فيزيائياً فكيف يُعقل أن تكون قوانين الكون الإلهية، وحركة الملائكة، وتوزيع الأرزاق خاضعة لنظام تشفير لغوي اخترعه التجار الفينيقيون كاصطلاح لترتيب بضائعهم؟! إن جعل أسرار الغيب وحركة الكون تابعة لجدول حسابي وضعه إنسان، هو قلب للمنطق وإهانة لوعي الإنسان.

وتعاني هذه الخرافة أيضاً من انقطاع السببية الكونية؛ فالكون العاقل يقوم على قانون السببية، وادعاء أن رسم جدول رياضي بداخله أرقام متساوية وحمله في الجيب سيؤدي إلى تفتيت حصوة في الكلى أو هزيمة جيش، هو ادعاء لسببية غير موجودة لا فيزيائياً ولا شرعاً وينقض المنطق ذلك متسائلاً هل هناك أي رابط كيميائي، بيولوجي، أو فيزيائي بين حبر أحمر مكتوب على ورقة هندسية، وبين زيادة كريات الدم البيضاء لمحاربة فيروس؟ إن هذا هو عين التفكير السحري البدائي الذي يربط بين ظواهر لا علاقة بينها لمحاولة السيطرة على المجهول.

وتُختتم هذه المحاكمة العقلية بمعضلة التخلف الحضاري والاختبار البراغماتي فهذا هو الاختبار العقلي الذي ينسف كتب البوني وابن عربي من جذورها؛ فإذا كان علم الحرف والأوفاق قادراً حقاً على تسخير خدام الجن، وجلب الكنوز، وتدمير الأعداء بحرف أو رقم، فلماذا سقطت الدول الإسلامية تحت وطأة الاستعمار؟! ولماذا قُتل المسلمون في الحروب الصليبية واجتياح التتار المريع؟ ويطرح العقلانية نقضها القاهر أين كان شيوخ الطرق الصوفية وكبار الروحانيين، ولماذا لم يستخدموا هذه الأوفاق الجبارة لتدمير دبابات المستعمر، وإسقاط طائراته، واستخراج كنوز الأرض لسداد ديون الأمة بدلاً من القتال بالسيف والجوع؟! إن مجرد النظر إلى واقع الأمة المزري في عصور سيادة هذا الفكر، يُثبت للعقل القطعي أن الأوفاق وعلم الحرف ليست سوى أوهام سيكولوجية، وورق لا ينفع أحداً في الكون إلا الدجال الذي يبيعه لسلب أموال العوام وبناء ثروته على أنقاض وعيهم.

الخلاصة العقلية لـ "الأسرار المكتومة" الدين كـ "آلة صراف"

إن التتبع الدقيق والواعي لمنظومة الأوراد البدعية، وعلم الحرف، والأوفاق، يضعنا أمام استنتاج فلسفي ونفسي مرعب؛ فقد تم إفراغ الدين من مضمونه الأخلاقي والروحي، ليُعاد تشكيله كتقنية نفعية تهدف إلى تحقيق مكاسب دنيوية بحتة، مغلفة بغلاف من الروحانية المزيفة.

وفي إطار السرد والتحليل لكيفية تحول الدين إلى أداة للسيطرة وصناعة ما يمكن تسميته بـ "السوبرمان الصوفي"، نجد أنه في المحصلة النهائية، تحول التصوف الباطني من منهج لتزكية النفس وإخضاعها للخالق، إلى أكاديمية للسيطرة على الكون وتفريغ شهوة القوة وتتجلى هذه المأساة في التحول من التزكية إلى التسخير؛ فالمريد الذي يجلس في خلوته المظلمة ليردد الطلاسم والدعوات البدعية مئات الآلاف من المرات، لم يعد في الحقيقة يبحث عن مغفرة الذنوب، ولا عن النجاة من النار، بل يبحث بلهفة مريضة عن "الخادم الروحاني" الذي سيظهر له ليجعله قادراً على الطيران، أو قهر خصومه، أو جلب الأموال، أو قراءة أفكار الناس لقد تحولت الغاية تماماً من التطهر إلى التسلط.

وترافق هذا الانحراف مع ظاهرة تسليع الغيب؛ حيث حولوا الغيب إلى مجرد مستودع للطاقات والخدمات، وجعلوا الشيخ هو المدير الحصري لهذا المستودع إن المريد هنا يشتري "السر" (سواء كان ورداً أو وفقاً) من الشيخ بالخضوع التام والخدمة والمال، لكي يستخدم هذا السر في تحقيق رغباته المادية وهذه هي أقصى درجات المادية، لكنها مادية تتخفى خلف سبحة ولحية وتمتمات غير مفهومة، حيث يتم توظيف اسم الله وآيات القرآن لخدمة "الأنا" وتضخيمها بدلاً من سحقها!

وهنا يأتي التفكيك الشرعي والعقلي ليكشف عن سقوط العبودية والانقلاب الأنطولوجي ففي هذه النقطة، يتجلى الفارق المرعب بين دين التوحيد الصافي، وبين وثنية الطلاسم الباطنية، ويتضح كيف يقع هؤلاء في فخ الاستدراج الشيطاني الموهوم بالكرامة والعزة، بينما هم يسقطون في أحط دركات العبودية لغير الله ولإدراك هذا السقوط، يجب التمييز بوضوح بين "الدعاء" و"التعويذة" ففي الإسلام، يرفع المؤمن الصادق يديه قائلاً: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}؛ فالدعاء يمثل قمة العبودية لأنه ينطلق من يقين العبد بضعفه، ويقينه بأن الله حر الإرادة، قد يعطيه ما طلب وقد يمنعه لحكمة، والعبد في الحالتين راضٍ ومستسلم أما صاحب الأوراد السحرية والطلاسم، فهو ينظر إلى الغيب كأنه "آلة صراف آلي"، والورد أو الوفق هو "الرقم السري"! إنه يعتقد يقيناً أنه إذا كرر الطلسم بعدد معين، وفي وقت فلكي معين، فإن النتيجة حتمية ولا بد أن تقع وهذا في ميزان العقل والشرع ليس دعاءً، بل هو تعويذة سحرية خالصة.

وتقودنا هذه التعاويذ إلى معضلة قهر الإله المزعوم؛ إذ إن أخطر إفرازات الأوراد والأوفاق السحرية هي تدميرها لمفهوم الإرادة الإلهية الحرة والحكمة الربانية ففي العقيدة الإسلامية، يمتلك الله مطلق الحرية والمشيئة، فهو سبحانه {يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} أما في الفكر الروحاني الباطني، فإن الورد والطلسم يُجبر الخادم الروحاني، بل ويُجبر القدر والكون على الاستجابة رغماً عن أي شيء! وهنا ينزل النقض المنطقي القاصم إن هذا التصور يعني عقلاً ومنطقياً أن المشيئة والسيطرة قد انتقلت من الخالق إلى المخلوق الذي يمتلك "السر" وهذا الانقلاب الأنطولوجي يجعل الذاكر المتمتم بالطلاسم هو السيد المُتحكم، ويجعل القوى الغيبية -بل والإرادة الإلهية تعالى الله عن ذلك- في مقام الخادم المقهور الذي تُسيره الحروف والأرقام!

وهنا تحديداً ينتحر المنطق الديني تماماً، وتسقط ادعاءات الولاية، لنجد أنفسنا أمام حالة من عبادة الذات المريضة، وأمام غرور شيطاني صريح يُسوق للعوام على أنه كرامات علوية، بينما هو في حقيقته تمرد كامل على حقيقة العبودية لله رب العالمين.

الفصل الخامس

الاستدراج الشيطاني الموهوم بالكرامة

التفكيك المفاهيمي بين الكرامة الربانية والحال الشيطاني

إن أعظم فتنة تُثبت أقدام الأتباع على الباطل، وتُعطل ملكة النقد لديهم، هي رؤيتهم لخوارق العادات تجري على أيدي شيوخهم فإذا رأى المريد شيخه يطير في الهواء، أو يقرأ فكرة في عقله، أو يخبره بما أكل في بيته؛ انهارت أمامه كل الحجج الشرعية والعقلية، وسلم له عقله ودينه تسليم الأعمى وهنا تتجلى العبقرية الفذة للمنهج الإسلامي، الذي لم يجعل الخارقة الفيزيائية في ذاتها دليلاً قطعياً على الولاية أو صحة المعتقد، بل جعل "الاستقامة على الوحي" هي الميزان الأوحد.

يقع الكثيرون في خلط مفاهيمي كارثي بين "الكرامة" التي يكرم الله بها عباده الصالحين، وبين "الاستدراج" الذي هو فخ شيطاني وعقوبة إلهية ولفك هذا الاشتباك، نُخضع الظاهرة للتحليل النفسي والشرعي، لنجد أولاً أن البحث المحموم عن الكرامة ليس دليلاً على علو الهمة الروحية، بل هو في حقيقته مرض نفسي وعقدي خطير نابع من شهوة الخوارق.

ففي ضوء التحليل النفسي لما يمكن تسميته بـ "المادية الروحانية"، نجد أنه في التصوف السني المتقدم، كانت الكرامة تُعتبر نقطة ضعف وابتلاء يُخشى منه على قلب السالك من العُجب والغرور ولذلك كان الأوائل يكتمون كراماتهم كما يكتمون ذنوبهم، ويرون أن أعظم الكرامة لزوم الاستقامة أما في التصوف الفلسفي المتأخر، فقد تحولت الخارقة إلى شهوة نفسية خفية؛ فالسالك الذي يُعذب جسده في الخلوات ويردد الطلاسم، لم يعد يهدف إلى ترويض نفسه المريضة، بل تضخمت "الأنا" لديه وبات يبحث عن سلطة غيبية تجعله يتميز عن العوام، سلطة تجعله يطير، أو يقرأ الأفكار، أو تُطوى له الأرض إن هذا التعطش المحموم لامتلاك قوى خارقة هو في جوهره انحراف نفسي يحول الدين من عبودية وتذلل، إلى بحث عن السيادة والسيطرة.

وهنا يتدخل التحليل الشرعي ليكشف فخ الاستدراج الإلهي؛ فهذه الشهوة الخفية للخوارق هي الثغرة التي يتسلل منها الشيطان ليُحكم قبضته على السالك ويُعرّف الشرع هذا الفخ بـ "الاستدراج"، وهو سنة إلهية مرعبة تعني أن يمد الله للعاصي أو المبتدع في أسباب الغرور، ويُيسر له الشياطين لتلبي بعض رغباته الدنيوية الخارقة، ليزداد يقيناً بضلاله، حتى يلقى الله وهو على شرك وقد حذر القرآن من ذلك صراحةً بقوله تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف: 182-183]، وقوله سبحانه: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً} [الأنعام: 44] وتقودنا هذه الآيات إلى نتيجة شرعية حتمية إن الخارقة التي تظهر على يد مبتدع يستغيث بغير الله، أو يتمتم بطلاسم مجهولة، أو يسقط عن نفسه التكاليف، ليست وسام شرف ولا مكرمة، بل هي عقوبة إلهية مُقنّعة وحال شيطاني مُدمر لصاحبه.

وإذا تجاوزنا النصوص الشرعية، واحتكمنا إلى المنطق العقلي المجرد لتقييم ظاهرة الخوارق، سنجد أنها تخضع لقانون صارم يُسمى "قانون المطابقة" يقرر المنطق السليم في هذا المفهوم أن الأثر يدل على المؤثر، ويطابقه في صفاته وطبيعته؛ فالمصدر النقي لا يُنتج إلا أثراً نقياً، والمصدر الخبيث العشوائي لا يُنتج إلا أثراً خبيثاً وعبثياً وبناءً عليه، إذا ادعى شخص أن الخارقة التي حدثت له هي كرامة ربانية، فيجب عقلاً ومنطقياً أن تتطابق حالة هذا الشخص (وعاء الخارقة) مع صفات المانح وهو الله (القدوس، الطاهر، الحكيم) .

ومن خلال هذا القانون، يبرز النقض المنطقي الصارم لظاهرة ما يُطلق عليه العوام اسم "المجاذيب" وأصحاب الأحوال إذ يصطدم العقل يومياً بمشاهد لأشخاص فاقدين للأهلية، يتركون الصلوات، يهجرون النظافة الشخصية، يعيشون في المزابل والمقابر، ويتلفظون بالبذاءات، ثم تظهر على أيديهم خارقة كالإخبار بشيء غائب أو تحمل ضربة سيف وهنا يتدخل العقل ليطرح سؤاله القاصم: كيف يمكن للقدوس الطاهر أن يجعل من القذارة والنجاسة وعاءً لكراماته؟ وكيف يمكن للحكيم أن يُجري آياته على يد من يهين شريعته ويسقط تكاليفه؟

إن الاستنتاج العقلي الحاسم بناءً على قانون المطابقة، يرفض رفضاً قاطعاً نسبة هذه الخوارق إلى الله ويحكم بالضرورة المنطقية أن هذه "الأحوال" صدرت من مصدر خبيث يتطابق مع حال هذا الشخص، وهذا المصدر هو الشياطين والجن السُفلي؛ فالشياطين تعشق النجاسة، وتفرح بترك الفرائض، وتتخادم مع من يُهين آدميته إن نسبة الخوارق العبثية، التي تُمارس كألعاب السيرك على يد أشخاص ملوثين عقائدياً أو بدنياً، إلى الكرامة الإلهية، هي أكبر إهانة للكمال الإلهي، وسقوط مدوٍّ في فخ العمى البصيري الذي يُعطل المنطق لصالح الانبهار البصري.

السرد التاريخي وموقف السلف من الخوارق تأسيس الوعي النقدي

لم يتعامل علماء الأمة الأوائل مع الخوارق والأحوال الشيطانية بالتنظير الفلسفي المجرد فقط، بل واجهوها في الميدان العملي لقد أدركوا مبكراً أن الشياطين ستُمرر العقائد الفاسدة والأوراد المبتدعة عبر بوابة الإبهار البصري، فكان تصديهم لهذه الظاهرة يمثل قمة النضج العقلي والشرعي.

وفي السرد التاريخي وقصص كشف الدجل الشيطاني في الميدان، نجد التاريخ الإسلامي حافلاً بمواجهات حاسمة كُشف فيها الغطاء عن الاستدراج الموهوم بالكرامة، وتعرى فيها الدجالون أمام وعي العلماء ففي عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، ظهر رجل يُدعى حارث الدمشقي (والذي عُرف بكذاب بني أمية)، بدأ بالزهد، ثم ادعى الولاية، ثم النبوة وكانت تظهر على يديه خوارق مرعبة تسلب العقول؛ فكان يُطعم الناس فواكه الصيف في الشتاء، وكان الرخام يسبح بين يديه، وكان يُرى راكباً في الهواء، والأسلحة لا تخترق جسده! وأمام هذا الإبهار البصري الذي أسقط بعض العوام في فخ تصديقه، لم ينخدع علماء التابعين، بل أدركوا فوراً أنه "مُخَدَّم" تخدمه الشياطين وتلتبس به ولما أُمر بقتله، طعنه الجندي فلم يخترقه الرمح، وهنا تدخل الوعي الشرعي؛ فقال له العالم: "إنك لم تسمّ الله، اذكر اسم الله على رمحك"، فلما سمّى الله بصدق ويقين، زال الغطاء الشيطاني، وبطل مفعول الطلاسم، ونفذ الرمح فقتله إن هذه الحادثة تثبت بجلاء أن الخارقة لم تكن سوى حماية شيطانية مؤقتة، انهارت فوراً أمام التوحيد الخالص.

ويتكرر المشهد بصورة أعمق وأكثر تفصيلاً في القرن الثامن الهجري، حين واجه شيخ الإسلام ابن تيمية طائفة من غلاة المتصوفة (البطائحية الرفاعية) الذين كانوا يستعرضون كراماتهم المزعومة بدخول الأفران المشتعلة، وأكل الحيات أحياء، واللعب بالنار لم يقف ابن تيمية موقف المنكر لوقوع الحدث، بل انطلق من موقف المُشَرِّح الذي يفكك الظاهرة علمياً وشرعياً فقد فضح دجلهم، وكشف أن ما يفعلونه هو مزيج بين التخادم مع الجن وبين الحيل الكيميائية؛ حيث كانوا يطلون أجسادهم بدهون ضفادع وحيوانات معينة وأحجار الطلق (وهي حيل طبيعية) تمنع وصول النار للجلد لفترة قصيرة ولإسقاط هيبتهم، تحداهم في مناظرة علنية قائلاً: "أنا وأنتم نغسل أجسادنا بالماء الساخن والخل لإزالة الطلاء الكيميائي المانع للنار، ثم ندخل النار معاً بشرط التوكل الخالص على الله، فمن احترق فعليه لعنة الله" وهنا انهارت أسطورتهم ورفضوا التحدي، وسقطت هالتهم المزيفة أمام العوام، ليثبت أن كراماتهم لم تكن سوى ألاعيب بهلوانية تعتمد على الجهل بقوانين الطبيعة والاستعانة بالشياطين

ومن رحم هذه المواجهات الميدانية، صاغ العقل الإسلامي الأول قاعدة ذهبية تُعد من أعظم ما أُنتج في تاريخ الفكر النقدي لحماية الجماهير من الاستغفال ومغالطة الارتباط السببي فقد قال الإمام الليث بن سعد (ت 175 هـ): "لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء ما قبلته" ولما بلغت هذه المقولة الإمام الشافعي (ت 204 هـ)، أعمل فيها مشرط العقل والاحتياط وقال: "قصر الليث بل لو رأيته يمشي على الماء، ويطير في الهواء، فلا تغتر به حتى تعرض أمره على الكتاب والسنة"

إن هذه القاعدة الشافعية ليست مجرد حذر فقهي، بل هي قمة النضج المنطقي الذي يفكك المغالطة المنطقية الشائعة ويُثبت انفصال القدرة عن الحقيقة، أو ما يُسميه المناطقة بـ "الارتباط السببي الزائف" فالعقل الصارم يقرر أنه لا توجد أي علاقة منطقية بين خرق قوانين الفيزياء وبين امتلاك الحقيقة العقدية فإذا استطاع شخص ما أن يطير في الهواء أو يمشي على النار، فهل هذا يثبت أن صلواته المبتدعة صحيحة؟ أو أن طلاسمه السريانية هي وحي إلهي؟ إن الطيران والمشي على الماء هي قدرات حركية وفيزيائية (سواء حدثت بسحر أو جن)، أما العقيدة والشريعة فهي حقائق معرفية وبالتالي، فإن الاستدلال بالقدرة البدنية الخارقة على صحة المنهج الفكري هو خلل منطقي مريع، تماماً كمن يقول: "هذا الرجل يستطيع رفع مائتي كيلوجرام بصدره، إذن نظريته في فيزياء الكم صحيحة قطعاً"!

وبهذا التأسيس، نعلن سقوط الابتزاز الروحي؛ فقد أدرك السلف الصالح هذا الانفصال المنطقي بعبقرية مبكرة، وجعلوا النص الموحي والاستقامة الأخلاقية هما معيار الحق الأوحد، وليس الألعاب البهلوانية لقد جرّدوا المبتدعة من أقوى أسلحتهم؛ فمهما قدم الدجال من خوارق بصرية ليُقنع أتباعه بأنه ولي، وأن أوراده المخترعة وطلاسمه سر إلهي، فإن العقل المسلم المحصن بهذه القاعدة الذهبية سيقف أمامه بشموخ قائلاً: "طيرانك في الهواء مهارة شيطانية أو حيلة، ولكن مقالتك تُعرض على ميزان الشريعة فإن وافقتها قبلناها، وإن خالفتها ضربنا بها وبطيرانك عرض الحائط".

الردود الشرعية وتفكيك "مكاشفات" الباطنية (اختراق الوهم)

يُعد الاحتجاج بـ "الكشف والمشاهدة" و"الإخبار بالمغيبات" الحصن الأخير الذي تلجأ إليه الطرق الباطنية لإثبات ولاية شيوخها ولكن عند تسليط كشافات الوحي الصافية، ومقاييس المنطق الصارمة على هذه "المكاشفات"، يتبين لنا أنها لا تعدو كونها إما تخابراً شيطانياً أو تلاعباً سيكولوجياً وإحصائياً.

وفي هذا السياق، يُعد كتاب "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" لشيخ الإسلام ابن تيمية المرجع الأعظم والأدق في تشريح هذه الظاهرة فلم ينكر علماء الأمة الأثبات وقوع ظواهر خارقة أو إخبار بالمغيبات على يد بعض المنحرفين، بل اعترفوا بوقوعها، ولكنهم فككوا مصدرها وكيف يخدم الشيطان الولي المزعوم يقول ابن تيمية في الفرقان واصفاً حقيقة هذه المكاشفات:

"ومن هؤلاء من تخبره الشياطين ببعض الأمور الغائبة، أو تسرق له شيئاً من أموال الناس ومنهم من إذا حضر سماع المكاء والتصدية (حضرات الرقص والبدع) تتنزل عليهم الشياطين، حتى يُحمل أحدهم في الهواء وكل هذا من الأحوال الشيطانية والفرق بينهما: أن الكرامات سببها الإيمان والتقوى، والأحوال الشيطانية سببها ما نهى الله عنه ورسوله من الشرك والبدع"

إن التفكيك المنهجي لهذا النص يؤسس لقاعدة "المقايضة الشيطانية"؛ فالشيطان لا يقدم خدمة كشف الغيب النسبي للشيخ مجاناً الثمن المدفوع هو إيقاع الشيخ في الشرك عبر الأوراد المبتدعة، والطلاسم، واعتقاد وحدة الوجود، والاستغاثة بغير الله وبمجرد أن يدفع الشيخ هذا الثمن العقدي، يتحول الشيطان إلى خادم تقني يوفر له معلومات غائبة ليفتن بها العوام، فيظن الجاهل أن هذا الشيخ ينظر بنور الله، بينما هو في الحقيقة يتلقى تقاريره من استخبارات الظلام.

ومن أعظم ما يُفتتن به المريدون هو أن يدخل أحدهم على الشيخ لأول مرة، فيخبره الشيخ باسمه، وبما فعل في بيته البارحة، أو بالمشكلة التي يُحدث بها نفسه! فيخر المريد ساجداً لشيخه معتقداً أنه يمتلك شاشة إلهية يرى بها الكون وهنا يأتي التفكيك الشرعي لظاهرة المكاشفة وقراءة الأفكار ليقدم تفسيراً دقيقاً ومتماسكاً عبر تخابر القرناء، دون الحاجة لإضفاء صفة الألوهية على البشر لقد أخبرنا النبي ﷺ أن لكل إنسان قريناً من الجن يرافقه منذ ولادته ولا يفارقه، يعلم أسراره وماضيه ونقاط ضعفه، حيث قال ﷺ: "ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن" (رواه مسلم) .

وتعتمد آلية عمل المكاشفة الباطنية على أنه عندما يأتي المريد المأزوم إلى الشيخ الذي يمارس الرياضات الباطنية ويستعين بالجن عبر الأوفاق والطلاسم، يقوم الجني الخادم للشيخ بالتواصل الخفي والسريع جداً مع القرين الملازم للمريد يسحب خادم الشيخ المعلومات الدقيقة من قرين المريد، كاسم أمه أو مكان ماله الضائع أو ذنب ارتكبه في السر، ثم يُلقي الجني هذه المعلومات في أذن الشيخ أو في روعه، فينطق بها الشيخ وكأنها إلهام رباني! هذا ليس كشفاً من اللوح المحفوظ، بل هو شبكة استخبارات شيطانية تهدف إلى حيازة ثقة العوام وسرقة أموالهم وعقولهم، وقد فضح القرآن هذه الآلية بوضوح في قوله تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ} [الأنعام: 121]

وإذا تركنا التفسير الشرعي جانباً، وسلطنا أدوات النقد المنطقي والسيكولوجي على ادعاءات هؤلاء المكاشفين العارفين، سنجد أن هالتهم تُبنى على مغالطة منطقية شهيرة تُعرف بمغالطة الانتقائية الإحصائية، أو قناص تكساس ولتفكيك هذه المغالطة وفهم كيف يُصنع الوهم، لو قمنا بتحليل إحصائي وعلمي دقيق لادعاءات هؤلاء الشيوخ في مجالسهم، سنجد أن الشيخ يُلقي يومياً بعشرات التخمينات، والعبارات الفضفاضة، والادعاءات الغيبية تصدق واحدة أو اثنتان منها (إما صدفة، أو بفعل قراءة لغة الجسد، أو باستراق السمع عبر الجن)، وتخيب وتكذب ثمانٍ وتسعون ادعاءً!

وهنا يبرز دور العقل المأزوم؛ فالعقل البشري للمريد المشحون عاطفياً والباحث عن منقذ يقع في فخ "الانحياز التأكيدي"، فهو يتذكر ويُضخم ويروي للناس المرة الوحيدة التي أصاب فيها الشيخ، ويتناسى ويتجاهل تماماً العشرات من المرات التي أخطأ فيها الشيخ أو نطق بهراء لا معنى له.

وتأتي الضربة المنطقية القاصمة لتقرر أن العلم الإلهي والوحي الرباني هو علم مطلق يتسم بالكمال واليقين، ولا يقبل نسبة خطأ قدرها ولو جزء من الألف فبمجرد ارتكاب الشيخ لخطأ واحد في مكاشفاته، أو تخمين خاطئ، أو إخبار بغيب لم يقع؛ يسقط عقلاً ومنطقياً ادعاء تلقيه عن الله المعصوم، فالإله لا يخطئ ولا ينسى ولا يُخمن إن هذا الخطأ المتكرر في مكاشفاتهم يثبت بالدليل القاطع المانع أن مصدر معلوماتهم هو مصدر قاصر ومحدود ويحتمل الكذب؛ وهو إما فراسة بشرية تخطئ وتصيب، أو استعانة بشياطين وصفهم القرآن بأنهم كذابون يخلطون مع الكلمة الصادقة مائة كذبة، كما في الحديث الصحيح: "فيكذبون معها مائة كذبة"

وفي الختام، يتضح أن المكاشفة في الفكر الباطني ليست إشراقاً نورانياً، بل هي تضافر بين تسريب معلوماتي من الجن وبين انحياز سيكولوجي أعمى من المريد، وما بُني على الوهم يسقط أمام أول اختبار حقيقي للعقل.

الردود العقلية والمنطقية نسف الهالة الروحانية للخوارق

وإذا نحينا النصوص الشرعية جانباً لبرهة، ووضعنا دعاوى "الخوارق الباطنية" على طاولة التشريح المنطقي والفلسفي، سنجد أنها تتهاوى فوراً أمام سلسلة من المعضلات العقلية القاصمة، التي تُجرد هذه الظواهر من أي هالة قداسة مزعومة.

وتبرز في طليعة هذه المعضلات معضلة عالمية الخوارق؛ حيث يحاول شيوخ الباطنية احتكار الخارقة وجعلها دليلاً حصرياً على صحة معتقدهم وولايتهم ولكن الاستقراء الفينومينولوجي، أي تتبع الظاهرة في الواقع، يوجه ضربة مميتة لهذا الادعاء فالواقع الاستقرائي والتاريخي يُثبت أن الخوارق المرعبة لا تقتصر على المتصوفة، بل نجدها وبشكل أشد إبهاراً لدى سحرة الهندوس واليوغا، وقساوسة الفودو في إفريقيا، وشامانات أمريكا اللاتينية، وحتى لدى السحرة العلمانيين؛ فهم يمشون على الجمر المشتعل، ويطيرون ويرتفعون في الهواء، ويطعنون أجسادهم بالخناجر دون أن تنزف، ويخبرون ببعض المغيبات! وفي قفص المحاكمة المنطقية وهدم دلالة الاختصاص، تنص قواعد المنطق على أن "ما يشترك فيه الخصوم لا يصلح دليلاً مستقلاً لترجيح أحدهم" فإذا كانت الخارقة الفيزيائية دليلاً قاطعاً على محبة الله وصحة العقيدة، فهذا يُلزم منه عقلاً وتصديقاً أن الله يُحب عباد البقر، وعُبّاد النار، ومُستحضري أرواح الموتى، لأنه منحهم نفس الخوارق! ومن هنا نصل إلى الاستنتاج العقلي القاهر؛ حيث يقرر العقل أن هذه الخوارق ما هي إلا قدرات ناتجة عن طاقات طبيعية كامنة، أو رياضات روحية قاسية، أو استعانة واستدراج بالجن، وهي قوانين تسري على المؤمن والكافر، والصالح والطالح وبالتالي، تسقط دلالة الخارقة تماماً كمعيار لمعرفة الحق من الباطل، وتصبح مجرد ظاهرة باراسيكولوجية لا علاقة لها بالدين أو الولاية.

وتليها معضلة الغاية والعبث؛ فالكون بأسره يقوم على مبدأ الغائية، أي أن كل فعل يصدر عن الإله الحكيم له غاية نبيلة ومقصد عظيم والمعجزات والكرامات في الإسلام لم تأتِ عبثاً، بل لها غاية واضحة كنصرة مظلوم، أو إنقاذ نبي كنار إبراهيم، أو إطعام جائع، أو إثبات حجة لتثبيت الإيمان وعند توجيه النقض المنطقي وكشف عبثية الاستعراض، ننظر إلى خوارق غلاة المتصوفة، خاصة في الموالد وحلقات الذكر، لنجد أنها تتسم بالعبثية الاستعراضية المحضة، كأن يضرب الشيخ نفسه بالسيخ الحديدي من خده ليخرج من خده الآخر، أو يأكل الزجاج المكسور، أو يبتلع المسامير، أو يرقص حتى يخرج الزبد من فمه! وهنا يطرح العقل الصارم سؤاله ما هي الحكمة الإلهية أو الغاية الحضارية من أكل الزجاج أو طعن الخدود؟ هل انتصر الإسلام بهذا السيخ؟ هل شبع الفقراء بهذا الزجاج؟ هل ارتفع الجهل؟ إن هذه الأفعال في ميزان العقل لا تتعدى كونها استعراضات سيرك بهلوانية أو إيذاء للذات، غايتها الوحيدة هي إبهار السُذج، وابتزاز مشاعر العوام لجمع الأموال والنذور، وتضخيم هيبة الشيخ إن العقل ينزه الإله الحكيم تنزيهاً مطلقاً عن أن يجعل آياته وكراماته ألعاباً خرقاء لا نفع فيها للدين ولا للدنيا.

وتكتمل حلقة الهدم بكشف الانفصام السلوكي والتنافر المعرفي؛ فالعقل البشري يربط دائماً بين المقدمات والنتائج، وبين المصدر والأثر فإذا كان الشخص ولياً مقرباً من الله يتلقى منه الكرامات والإشراقات، فإن النتيجة الحتمية عقلاً ونقلاً هي أن يكون هذا الشخص أشد الناس تمسكاً بشريعة الله، وأكثرهم طهارةً وتواضعاً وأمانةً ولكن عند رصد ظاهرة الانفصام وتناقض الدعوى مع الواقع، يصطدم العقل بواقع مزرٍ؛ حيث نجد أن بعض أصحاب هذه الخوارق، ممن يُطلق عليهم الأقطاب والمجاذيب، يتركون الصلوات الخمس بحجة سقوط التكليف عن العارفين، ويشربون الدخان والمخدرات كالحشيش في بعض الزوايا القديمة والحديثة، ويأكلون أموال الناس بالباطل عبر بيع الأوهام والتمائم، بل ويختلطون بالنساء بدعوى رفع الحجاب!

وأمام هذا المشهد، يبرز النقض المنطقي ليضع معيار الاستقامة كحكم فصل، حيث يسقط العقل في حالة من التنافر المعرفي إذا صدق بولايتهم كيف يمنح الخالق العظيم أوسمة الكرامة لمن يدوس على شريعته ويحتقر أوامره؟! هل يُكرم الملكُ المتمردين عليه والمستهزئين بقوانينه؟! يحكم العقل باستحالة أن يُكرم الله من يُهين دينه، وهذا يثبت بشكل استنتاجي قاطع أن هذه الخوارق هي مجرد رشوة شيطانية فالشيطان هو الكيان الوحيد في الكون الذي يُكافئ الإنسان بخوارق مادية كلما ازداد تمرداً على الله، وانغماساً في النجاسة، وانتهاكاً للأخلاق إن هذا الانفصام السلوكي هو الدليل العقلي الأكبر على أن المصدر شيطاني بامتياز.

الخاتمة

العودة إلى النبع الصافي تحرير العقل واسترداد التوحيد

بعد هذه الرحلة المعرفية الشاقة في تشريح الفلسفة الباطنية والصوفية المتأخرة، تتضح لنا الصورة الكبرى بانجلاء تام إننا لم نكن أمام مجرد خلاف فقهي فرعي، أو تنوع محمود في مدارس التزكية، بل كنا في قلب محاكمة تاريخية لمنظومة معرفية وعقدية موازية، اصطدمت مع جوهر التوحيد الإسلامي في أدق تفاصيله، وسعت لاختطاف العقل المسلم من مساحة الفعل والحضارة إلى زنازين الوهم والعدم.

لقد توغلت هذه المنظومة في جسد الأمة متدثرة بشعارات براقة، ولكن بمجرد أن أخضعناها لمشارط النقد الشرعي تساقطت أقنعتها واحداً تلو الآخر، وقد تجلى سقوطها في أوضح صوره عبر الانقلاب الأنطولوجي (الوجودي)؛ حيث أثبتنا كيف ابتلع الفكر الباطني الفلسفات الوثنية لينتج عقيدة "وحدة الوجود"؛ تلك العقيدة الكارثية التي دمرت جدار المباينة بين الخالق والمخلوق، وحولت الدين من عبودية خالصة لإله منزه، إلى سفسطة حلولية تساوي في النهاية بين التوحيد والوثنية.

ويترافق هذا الانقلاب الوجودي مع استلاب إبستمولوجي (معرفي)؛ إذ فككنا الخديعة الكبرى المسماة بثنائية "الشريعة والحقيقة"، وكيف تم توظيفها لتعطيل دلالات الوحي، واستعباد إرادة المريد لصالح صنم "الشيخ" لتكتمل هذه المأساة بما يمكن تسميته بـ "علمَنَة الخرافة والوثنية"؛ حيث كشفنا كيف تدهورت العبادة من دعاء وتذلل إلى تقنية سحرية حوّلت الزوايا إلى أوكار لاستحضار الجن، وفتحت بوابات الاستدراج الشيطاني الذي تم تسويقه للعوام على أنه كرامات وولاية.

وإن أخطر ما أفرزه هذا الانحراف لم يكن فقط إفساد العقائد، بل امتد ليشكل جناية حضارية متكاملة الأركان عبر "سراب الباطنية" الذي دمر فاعلية الإنسان المسلم لقد صادر هذا الفكر العقل الذي كرمه الله، واستبدل الانخراط في عمارة الأرض، بالانزواء في خلوات مظلمة سعياً خلف نشوة روحية موهومة لقد ورّث هذا الفكر أجيالاً من المتواكلين الذين ينتظرون نصرة الأمة من أقطاب الغيب وأغواث الخيال، بينما كانت جيوش المستعمرين تدك حصون العالم الإسلامي بالحديد والعلم.

ولإنقاذ العقل المسلم المعاصر من هذا السراب المظلم، فإن الحل لا يكمن في اعتناق الجفاف الروحي المادي، بل في العودة الصادقة إلى النبع الصافي؛ إلى التزكية السنية القرآنية التي أرساها الوحي وفهمها الرعيل الأول النبع الصافي هو الذي يحرر الإنسان من العبودية للكهنوت والشيوخ والطلاسم، ليرده إلى العبودية المباشرة والمحررة لرب العالمين؛ عبودية قوامها الخوف، والرجاء، والمحبة، والعمل الصالح الفعّال في ميادين الحياة.

وفي الكلمة الأخيرة التي نوجهها كدعوة لليقظة؛ نؤكد أن هذا الكتاب ليس مجرد قراءة نقدية في أوراق التاريخ، بل هو صرخة يقظة في أذن كل باحث عن الحقيقة، وكل عقل مسلم محاصر بضجيج الخرافة لا تسلم عقلك الذي كرمك الله به لأي بشر مهما ادعى من المقامات، ولا تطلب النور في سراديب الظلام الباطنية فالحق أبلج، والباطل لجلج، والسماء لا تُمطر طلاسم، وكل طريق إلى الله مسدود إلا طريق محمد بن عبد الله ﷺ {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} [الرعد: 17].

قائمة المراجع والمصادر

أولاً: المصادر الشرعية الأساسية (ميزان الوحي)

1— القرآن الكريم

2— الجامع المسند الصحيح (صحيح البخاري)، الإمام محمد بن إسماعيل البخاري

3— المسند الصحيح المختصر (صحيح مسلم)، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري

4— سنن أبي داود، الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني

5— مسند الإمام أحمد بن حنبل

ثانياً: مراجع العقيدة والنقد الشرعي والتاريخي (أقوال السلف ومحاكمة الانحراف)

6—الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (المرجع الأساسي في تفكيك الخوارق والمكاشفات)

7—مجموع الفتاوى (خاصة المجلد الحادي عشر: علم التصوف)، شيخ الإسلام ابن تيمية

8— تلبيس إبليس، الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (للتأصيل التاريخي لدخول البدع والغنوصية)

9—سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين الذهبي (لتراجم الحلاج، والبسطامي، والسهروردي)

10— الاعتصام، الإمام إبراهيم بن موسى الشاطبي (المرجع الأدق في نقد الأوراد المبتدعة وتقسيم الشريعة والحقيقة)

11— مصرع التصوف (أو تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي)، الإمام برهان الدين البقاعي

12— الرد على المنطقيين، شيخ الإسلام ابن تيمية (للاستدلال في الردود المنطقية)

ثالثاً: المصادر الصوفية والفلسفية محل النقد والتشريح (المصادر الأولية)

13— فصوص الحكم، محيي الدين بن عربي (المصدر الأول لعقيدة وحدة الوجود)

14— الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي

15— الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، عبد الكريم الجيلي (المرجع الأساسي لنقد الحقيقة المحمدية)

16—كتاب الطواسين و ديوان الحلاج، الحسين بن منصور الحلاج

17— حكمة الإشراق، شهاب الدين يحيى السهروردي المقتول

18— شمس المعارف ولطائف العوارف (شمس المعارف الكبرى)، أحمد بن علي البوني (المصدر الأساسي لعلم الحرف والأوفاق والطلاسم)

19— جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني، علي حرازم (للتدليل على غلو المتأخرين في الأوراد وتفضيلها على القرآن)

20— التاسوعات، الفيلسوف اليوناني أفلوطين (والذي تُرجم خطأً قديماً باسم "أثولوجيا أرسطو" - أصل نظرية الفيض)

رابعاً: مراجع الفلسفة، والمنطق، وعلم النفس (لدعم المحاكمات العقلية)

21— المعجم الفلسفي، د جميل صليبا (لضبط مصطلحات الغنوصية، النيرفانا، الإشراق)

22— المغالطات المنطقية، د عادل مصطفى (لتفكيك مغالطة "الارتباط السببي الزائف"، ومغالطة "قناص تكساس" في المكاشفات)

23— منطق الكشف العلمي، الفيلسوف كارل بوبر (لتأسيس مبدأ "قابلية التكذيب" في نقد ادعاءات الباطنية)

24— مراجع علم النفس العصبي المتعلقة بـ "تأثير الحرمان الحسي "و "الإيحاء الذاتي "لتفسير الهلوسات البصرية في الخلوات

خامساً: مراجع معاصرة في النقد الصوفي والدراسات العقدية

25— هذه هي الصوفية، الشيخ عبد الرحمن الوكيل (دراسة نقدية لاذعة)
26— الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق
27— مصادر التلقي عند الصوفية، د صادق سليم صادق (رسالة ماجستير ممتازة في نقد الكشف والإلهام)
28— الفكر الفلسفي في ضوء الإسلام، د محمود حمدي زقزوق

الفهرس

مقدمة 1

الفصل الأول: البون الشاسع بين التصوف السني المتقدم والتصوف الفلسفي 2

حقيقة التصوف الأول ومقام الإحسان والتزكية 2

جذور الانحراف تسلل الفلسفات الدخيلة 4

المحاكمة القطيعة المنهجية الشريعة والحقيقة 7

النتيجة من إحياء القلوب إلى تخدير العقول.. 9

الفصل الثاني: كارثة "وحدة الوجود" ونقضها بالأدلة الشرعية والعقلية.............................. 11

التأسيس الفلسفي لوحدة الوجود (قراءة نقدية في فكر ابن عربي)................................... 11

عبد الكريم الجيلي وتأليه النبي ﷺ في كتاب "الإنسان الكامل" 14

الفصل الثالث: الشطحات الباطنية ومزالق العقل الصوفي 16

من تخدير العقل إلى ادعاء الربوبية.. 16

الحلاج بين هلوسة "الأنا" ومقصلة الشرع والعقل.. 18

أبو يزيد البسطامي ومزالق "الشطح" (سبحاني ما أعظم شأني) 21

السهروردي المقتول فلسفة الإشراق واستبدال الوحي بالفلسفة.. 23

الفصل الرابع: الأوراد المبتدعة من ذكر الله إلى طلاسم السحر الجديد 24

هجر المأثور ومأسسة البدعة مغالطة تفضيل الورد على القرآن 24

الأسماء السريانية والطلاسم بوابة الاستدراج الشيطاني.. 27

علم الحرف والأوفاق علمنة الشعوذة وجذور الكابالا اليهودية.. 29

الخلاصة العقلية للأسرار المكتومة تحويل الدين إلى آلة صراف...................................... 31

الفصل الخامس: الاستدراج الشيطاني الموهوم بالكرامة 33

التفكيك المفاهيمي الفارق بين الكرامة الربانية والحال الشيطاني 33

السرد التاريخي وموقف السلف تأسيس الوعي النقدي في الميدان.................................... 35

التفسير الشرعي للمكاشفات نظرية القرين وشبكة التخابر الخفية.................................... 37

الردود العقلية والمنطقية عالمية الخوارق وعبثية الاستعراض... 49

الخاتمة 41

المصادر 42

الفهرس 44